مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ يُوسُف

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة يوسف

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة يوسف

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

ابتدأت سورة يوسف بِمِثْلِ ما ابتدأت به سورة هود، وسورة يونس، بنفس الحروف المقطعة، قال تعالى ﴿الٓر﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في معنى ﴿الٓر﴾ أي: أنا الله أرى. وقال آخرون: هي حروف من اسم الله الذي هو ﴿**الرحمن**﴾ فقوله تعالى ﴿الٓر﴾ و﴿**حم**﴾ و﴿**ن**﴾ حروف ﴿**الرحمن**﴾ مقطعة.[1]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٠٣-١٠٤)

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٣] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به سورة يوسف من الحروف المقطعة، يمتدح ويُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ) فهو بيان وتأكيد بوضوح كتابه القرآن الكريم وضوحاً بيناً إلى درجة الإعجاز في فصاحته وبلاغته، ووضوح معانيه ودلالاته، وجميع هديه المستقيم ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ فبدأ باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ التي تشير إلى آيات القرآن الكريم ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ثم وصف سبحانه وتعالى كتابه بصفة ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ من أبان وأظهر. أي: الواضح من كل وجه، وقد استجمعت لفظة ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ كمال صفة الوضوح، الذي انتفى به النقص، والغموض، والخلل، فاستحق كمال الثناء، لحقيقة ما تضمنه القرآن الكريم من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، ومضمونه وأهدافه، وأحكامه، وتشريعه الذي استوفى حاجة العباد. فهو متضمن للإبانة التامة لفظاً ومعناً، فقد انتفى الباطل والخلل والتعارض والاختلاف عن هذا الكتاب العظيم، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه. فهذه آيات القرآن الْمُحْكَم المبين، فهو مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف،

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)
(٢) المرجع السابق (١/١٠٩)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

والتعارض، وهو موضح ومبين لتوحيده، وفرائضه، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، وبركاته وهداه، وغايته ومقاصده، فهو خالٍ من الغموض، ومن كل ما لا نفع فيه.

ثم أشاد سبحانه وتعالى باللغة التي نزل بها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإن هذا القرآن قد أُنزل بلغة عربية، وفي هذا مزيد مدح وثناء من حيث لغته التي نزل بها، لأن اللغة العربية أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها لفظاً، فنزل أشرف وأعظم الكتب بأرحب اللغات وأعزها شرفاً، على سيد الأنبياء والمرسلين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أُنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدأ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه[١] بما يبين عظمة كتاب الله تعالى، القرآن العظيم.

ثم بين سبحانه وتعالى الغاية والمقصد ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي يحصل لكم الفهم الذي تعقلون به الطريق الصحيح، وتخرجوا به من ظلام الجهل الذي كنتم فيه إلى نور الإسلام. فإنه بهذا القرآن الواضح المبين يتحقق به تعقل الإنسان. وفي هذا تقرير من الله تعالى أنه يحصل بهذا القرآن العظيم ما يتعقل به الإنسان، ويهتدي به إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، فيعرف به الحق من الباطل، والخير من الشر، والصواب من الخطأ في جميع ما يحتاجه الإنسان في عقيدته وعبادته، وأخلاقه، وما يجب عليه، وما يحرم عليه، وما يضبط سلوكه وحياته، ويُعَرّفُه بحقوقه وواجباته ومسؤولياته. فيعرف به ما ينجو به من عذاب الله تعالى وسخطه، وما يقربه إلى الله تعالى، ويدخل به الجنة، ويُبعده عن النار.

ويتوجه الخطاب من الله تعالى إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له، عليه الصلاة والسلام، ممتناً بما أنزله سبحانه من قصص وأنباء ما قد سبق عن الأمم التي كانوا في غفلة وجهل بها وبحالها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، لما فيه من العبر والمواعظ والأحداث التي تبين عظمة تدبير الله تعالى للأمور من كل وجه، بإفشال كيد الكائدين، ونصر أنبيائه ورسله، وتدبيره لمسار الأحداث بمعجزات من عنده، بما يظهر فيها أن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه إذا أراد شيئاً سلك له سُبُل التحقق والحدوث كما أراده تبارك وتعالى.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/٢)

وفي ربط هذه الآية الكريمة بما قبلها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ تكون الدلالة: نحن نقص عليك القصص الذي تضمنه القرآن، فاجتمع ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ مع أحسن وأكرم لغة، فيعقل ويرشد به من سمعه أو قرأه، وهذا القصص واضح وموضح للتفاصيل التي تَبْرُز وتَظْهَرُ فيه الحقائق والآيات والمعجزات، وقد تضمن قوله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ علو سند القصص، بأنه من الله تعالى مباشرة، وكذلك صدقه، وخلوه من كل ما اشتهر في قصص غير القرآن، من الأساطير، والخيال الذي ليس له حقيقة في حقيقة القصة. فهو منزه من كل عيب ونقص.

ومن تعزيز قيمة القصص ونفعه أن الله تعالى ذكره بصيغة التعظيم والتفخيم لذاته سبحانه وتعالى ﴿ نَحْنُ ﴾ وإذا كان القاص له هو الله تعالى، فذاك دلالة على منزلة هذا القصص، وأثر وأهمية ما قصه تبارك وتعالى، لأن العظيم عَزَّ وجل لا يقص إلا ما يناسب مقامه وجلاله ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ الذي ليس بعده أحسن منه إطلاقاً، من حيث حقيقته، وصدق محتواه، ونظمه وبيانه، ومعجزاته، ودقة أسلوبه وعظيم بلاغته، وما احتواه من العبر والمواعظ والحكم التي تستثير النفوس للحق والخير، وتنهض بالعقول للتَّعَقُّل والتَّبَصُّر. فمن أراد أحسن القصص فعليه بما تضمنه القرآن الكريم. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والحسن يعود إلى القصص لا إلى القصة، أي لجميع قصص القرآن الكريم، وليس خاصاً بقصة يوسف عليه السلام[١] وأما باعتبار ورود التحسين والثناء والمدح في سياق سورة يوسف فقال العلماء: وإنما سُميت قصة يوسف: أحسن القصص، لأنها جمعت ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والشياطين، والأنعام، وسير الملوك والمماليك، والتجار، والعلماء، والرجال والنساء، وحيلهن، وذكر التوحيد والفقه، والسر، وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة، وتدبير المعاش، والصبر على الأذى، والحلم والعز والحكم، إلى غير ذلك من العجائب[٢] فمن جميل بناء النص، أن تعيين وتخصيص الحسن بقصة يوسف عليه السلام على اعتبار ورود المدح لها في سياق السورة، ويكون لجميع قصص القرآن الكريم. باعتبار مبنى النص، أنه قائم بذاته، فأفاد عموم قصص القرآن الكريم. وهذا من الإعجاز البلاغي والبياني في القرآن الكريم، بأن يتضمن النص الواحد دلالتين أو أكثر، من غير تعارض ولا اختلاف. ومن دلالة رفع منزلة القصص في القرآن الكريم، وما فيه من عظيم البيان وعظيم المواعظ والعبر، هو تخصيص وتعيين النبي صلى الله عليه وسلم بأنه هو المقصوص عليه هذا القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ فنخبرك أيها النبي بأخبار ما قد سلف من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٨٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/١٣٨)

أنباء الأمم، وإن كان الْمُخَاطَب به جميع الناس، فورود التخصيص من باب التعظيم، والْمُخَاطَبِين تبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم أكد سبحانه وتعالى قيمة هذا القصص ببيان مكانته ومنزلته من القرآن الكريم ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فهذا القصص هو مما اشتمل عليه هذا القرآن، وكونه جزءاً مما اشتمل عليه القرآن فإنه دليل على أن له منزلة رفيعة، وأثراً عظيماً، كبقية ما تضمنه القرآن.

ثم يبين الله تعالى أن نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم بهذا القصص قبل أن يوحى إليه من ربه تبارك وتعالى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ فقبل أن نوحي به إليك كنت من الغافلين عنه، أي منتفي علمك به. ومن جميل البيان ودقته أن الله تعالى لم يقل لنبيه صلى الله عليه وسلم: وإن كنت من قبله غافلاً، بل ﴿ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ فإنك واحد ممن ليس له علم بذلك، فيتأكد به منزلة القرآن الكريم، بأنه ينقل الآخذ به إلى العلم الرباني، الذي يأخذ بمن أخذ به إلى أهل العلم والمعرفة. فانتقل صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم إلى منزلة العالمين، وفي هذا رفع لمنزلة القرآن الكريم، ولمن آمن به، لأنه يرفع مكانته ومنزلته إلى العارفين العالمين، وكل بقدر ما يأخذ منه.

فاذكر لهم أيها الرسول أنك وغيرك من الغافلين الذين لا يعلمون ولا يعرفون نبأ قصة يوسف عليه السلام، التي بدأت برؤية يوسف عليه السلام، وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ فاذكر حين قص يوسف لأبيه قصة رؤياه، وقد بدأ يوسف عليه السلام بإعلام وإخبار أبيه برؤياه التي رآها في المنام بكل أدب واحترام، فبادر بقوله لأبيه ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ فلم يبدأ قوله بالبيان مباشرة، بأن يقول: رأيت في منامي كذا وكذا، بل قدم لها بالمقدمة الكريمة التي تدل على أدبه وكريم سجاياه وأخلاقه ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ إني رأيت في المنام أحد عشر كوكباً من كواكب السماء، وكذلك الشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. وقد ذكر قتادة: أن إخوته أحد عشر كوكبا ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ يعني بذلك أبويه، وعن ابن جريج: الشمس أمه، والقمر أبوه. وعن ابن عباس: أن رؤيا

الأنبياء وحيٌ[١]ومن دقائق البيان، أن يوسف أَخَّرَ الشمس والقمر لبيان مزيتها وفضلها، وقد أُجْريت الكواكب والشمس والقمر مجرى العقلاء، حيث وُصِفَت بوصف العقلاء، كونها ساجدة، لأن السجود هو فعل ما يعقل[٢]

وتبين الرؤيا الصالحة ما هو كائن مما سيحدث مستقبلاً، وتؤكد أن هناك كتاب محفوظ عند الله تعالى، وقد سجل فيه عَزَّ وجل ما سيكون من كل أحد في حياته الدنيا وحتى وفاته، وشقي أم سعيد، فَيُطلع الله تعالى العبد على شيء من القدر. فيكشف للإنسان ما سيحدث له، وما يحدث منه، أو لغيره، ليدرك عظمة علم وتدبير الله تعالى لشؤون الكون وشؤون عباده، وأنه مطلع جَلَّت قدرته على تفاصيل أمور عباده قبل أن يكون منهم ما يكون، وأنه قوي، عزيز، عليم، عظيم. وأن الرؤيا هي نعمة عظيمة، إما ليحذر، أو ليطمئن، أو لأي أمر آخر أراده الله تعالى من إحداثه للرؤيا التي يُرِيها عبده. وفي رؤية يوسف عليه الصلاة والسلام دليل على فضله ومنزلته التي عَلِمَهَا الله تعالى في سابق علمه. وأن الله تعالى هو الهادي والمدبر واللطيف برحمته.

فلما قص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب، أشفق من حسد إخوته له. فوجهه إلى الحذر والتوقي بالأخذ بالأسباب، بالرغم من علم يعقوب عليه السلام من أن ما هو مكتوب كائن لا محالة، إلا أن العباد مأمورون بالأخذ بالتدابير التي هي من سنن الله تعالى. فبدأ يعقوب عليه السلام كلامه لابنه بألطف الأساليب ﴿يَـٰبُنَيَّ ﴾ وهي تصغير ابن. لتفيد التلطف والشفقة والمحبة التي تستوجب من يوسف عليه السلام أن يلتزم بما سيقوله أبوه يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ وفي نهي يعقوب عليه السلام ليوسف من أن يقصص رؤياه على إخوته، ما يفيد ان إخوة يوسف يعلمون تأويل الرؤيا، أو خشي أن يفهموا تأويلها، فيترتب على معرفتهم لها معاداته، حسداً لأخيهم ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أي فيحتالوا لك بحيلة كيد، والكيد هو: المضرة القوية بحيلة، وقد يُسْتَخدَم فيها الاستدراج الذي ظاهره المصلحة، وباطنه السوء. وقد عمم الكيد، ليكون على حذر من أي تصرف منهم. وقد وصف يعقوب لابنه يوسف أن الكيد الذي يحدث منهم ليس كيداً سهلاً، بل كيد يخفى أمره عليك، لأن جملة ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ تدل على المبالغة في قوة الكيد. وكلمة ﴿كَيْدًا﴾ أفادت التوكيد، ومزيد التهويل والتعظيم، من أجل زيادة التحذير. وقد جزم يعقوب عليه السلام له بكيدهم له إن عَرَفُوا الرؤيا، وذلك للتشديد في التحذير من كيدهم. مما يفيد دقة معرفة يعقوب بأحوال أبنائه، وأن ليوسف مزية فضل عليهم في خِلْقَتِهِ وأخلاقه، لأنه بلغ من الجمال البشري ذروته، ومن محاسن الأخلاق ما كشفته سيرته فيما هو قادم، وكذلك عندما قال إخوته

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٩-١٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٥) ملخص، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٢١٩)

إنه أحب لأبينا منا، دليل على أنهم رأوا فيه فضلاً في بره بأبيه، وذلك لما كان من حال يوسف مع أبيه، الذي استدعى زيادة الفضل. وكذلك أن التحاسد على نعمة الاختصاص بالخير والفضل مظنة الحسد، وأن الحاسد قد يقوى حسده حتى يضع المحسود في مكيدة عظيمة، مما يوجب التستر والستر بما ينعم الله تعالى به على العبد، إلا ما كان منه ظاهراً لا يستطيع أن يتوارى به عن غيره. وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام رأى في رؤيا ابنه يوسف أنه سينال رفعة عظيمة جليلة.

وفي اختلاف يوسف عن بقية إخوته وهم أبناء يعقوب عليه السلام ما يفيد أن الأبناء قد يجدوا رعاية واحدة من الاهتمام، ومع هذا يتباينون في الطباع والأخلاق والفضائل والصلاح. كما أن يعقوب عليه السلام، عندما أخبر يوسف عليه السلام، أخبره على سبيل الحذر، وليس على سبيل غرس الشحناء في قلب يوسف على إخوته، كما أنه تعامل مع أبنائه معاملة لا تغرس بينهم الشحناء كما سيأتي من بقية أجزاء القصة.

وكذلك في تحذير يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام من إخوته، ما يدل على معرفة يعقوب بابنه يوسف عليهما السلام من أنه صاحب عقل راجح، فلن يأخذ في نفسه على إخوته، وكذلك دلالة على ثقة أبيه فيه، وتزكيته لسلامة فهمه وكريم أخلاقه. ثم ينوه يعقوب عليه السلام بأثر الشيطان على الإنسان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ فإن الشيطان شديد العداوة للإنسان، وأن عداوة الشيطان ظاهرة بينة، فقد أخرج آدم وحواء من الجنة بغوايته لهما. فإنه قد يحمل إخوتك بما يغويهم على الكيد لك. وفيه تنبيه المنصوح إلى أثر الشيطان في غواية الإنسان. وما يلزم من التماس ما يخفف عن يوسف عليه السلام علمه بكيد إخوته إن علموا بمضمون الرؤيا، فَيَحْذَرُه من غير بغض لهم. ويؤكد له أن الشيطان حريص على تقويتهم، وذلك بحثهم على فعل الشر ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ فإن الشيطان عدو للإنسان على وجه العموم، وأن عداوته ظاهرة بينة، فلا تخفى على أحد.

ويستأنف يعقوب تأويل رؤيا يوسف عليهما السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ فيربط يعقوب عليه السلام ما سبق من نعمة دلالة سجود الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر بتفاصيلها، فإنه يمتن عليك بالاجتباء ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ فكما امتن الله تعالى عليك بسجود تلك الأجرام العظيمة لك في الرؤيا، فتتحقق لك الرفعة العالية، فإنه كذلك يصطفيك ويختارك من بين عباده فيجعلك نبياً، وكما سخر لك تلك الأجرام العظيمة يسخر لك أمورك، ويسخر لك العباد ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ

ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي: تأويل الرؤيا. قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: أي يعلمك تأويل الرؤيا، وقال ابن زيد: يعلمك العلم والحكمة، وقال الزجاج: تأويل أحاديث الأنبياء، والأمم[١] ولا تضارب بينها إن اجتمعت دلالتها في نبي الله يوسف عليه السلام، لأن هذا من رحابة المعنى واستيفائه لجميع دلالاته مما سيعطيه الله تعالى لنبي الله تعالى يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ويستوفي لك نعمته من النبوة والإيحاء إليك، وعلو الكلمة، ويجمع لك خير الدنيا والآخرة، وكذلك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ويتم الله تعالى نعمته أيضاً على آل يعقوب، أي أهله أجمعين، ونسله ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ فإتمام نعمته سبحانه وتعالى عليك، ستكون كما أتمها على أسلافك، الذين هم جدودك: إبراهيم الخليل، وابنه إسحاق عليهما السلام، الذي هو والد يعقوب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى عليم حيث يجعل رسالته، وحكيم في اختياره، وتدبيره عزَّ وجل. فإن الله تعالى هو العليم بخصائص عباده، وأن من حكمته اختيار ما يعلم منهم لما يريد من أمره. فله الحكمة البالغة، والإرادة النافذة، والسلطان المطلق.

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ ﴾

بعد تلك الرؤيا وتعبيرها، والتي كانت منطلقاً لقصة يوسف عليه السلام، يبدأ السياق الكريم في تفاصيلها بأسلوب متدرج، وبلاغة بيانية متألقة في سرد القصة، وإيضاح وبيان ما فيها من الأحداث الواعظة، التي تستثير المشاعر والعواطف، مع توجيهها للحق، بما يربي العقل والنفس البشرية في جميع جوانبها ﴿ لَّقَدْ

---

[١] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/١٤٠)

كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لقد كان في خبر يوسف ومجريات حياته مع إخوته علامات وبراهين وحجج وعبر ومواعظ للمستفسرين عنها ولغيرهم، فإن كل حال من أحواله آية للمستخبرين عنها، وأيضاً لغيرهم. ومن دقائق البيان أن كلمة آيات استجمعت مجموعة الدلالات المتعلقة بعظيم قدرة الله تعالى في تدبير أمر العباد، وحفظه لمن يشاء، والمكر بمن يشاء، كيفما شاء عَزَّ وجل، وما يجري من الابتلاء، وما يخلفه من الرحمة وكريم العطاء، وما للصبر من الآثار، وما يؤول بصاحبه إليه، وأن الْمُلْكُ لله تعالى يدبره كيف يشاء، وفي نفس الوقت فاضت قصة يوسف عليه الصلاة والسلام بالمواعظ والعبر لمن يمكر، ولمن مُكِر به، وعظة لعاقبة التقوى، وما تصنعه في قوة الإنسان العقلية والإرادية، فتمنعه من الانحدار في الشهوات ومغرياتها، وتمنحه الصبر والترقب للخير والفضل. وهي آيات حجج وبراهين على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لما جاء فيها من تفاصيل دقيقة، لا يعرفها عليه الصلاة والسلام، ولا قومه، إلا الأحبار والرهبان من أهل الكتاب، لما جاءهم منها في التوراة والإنجيل، بل وتوثق ما عندهم فيها من الكتاب، وتصحح ما حصل فيها من التحريف والزيف والأباطيل. وكذلك هي براهين وأدلة من حيث سبكها في قوالب من البيان الذي يعجز عن بنائها البلغاء من الناس.

وقد خص الله تعالى السائلين بذكرهم من بين عموم الْمُخَاطَبِين ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لحرصهم على معرفة تفاصيلها، وإعجابهم بها، ومن أحداثها، فخصهم بالذكر لاهتمامهم، وإلا فهي آيات لهم ولغيرهم، مما يفيد أهمية تخصيص المهتم من بين المستفيدين، تشجيعاً وترغيباً لهم، واستنهاضاً لغيرهم بأن يكونوا مثلهم في الاهتمام.

ولقد تصدرت الآية الكريمة بحرف ﴿ لَّقَدْ ﴾ الذي يفيد التحقق المؤكد الذي لا شك فيه بأن قصة يوسف عليه السلام وإخوته آيات للسائلين، وجملة ﴿ لَّقَدْ كَانَ ﴾ تعطي الربط بين أحداث الماضي وفوائده للحاضر، فإن أحداث الماضي لها أهمية كبيرة على الحاضر، لما فيها من العبرة والعظة ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فقد أعطت لمن جاء بعدهم براهين ودلالات عظيمة من العبر والمواعظ والإرشاد، في إصلاح النفس عقيدة وإيماناً وأخلاقاً. ولم ينف تبارك وتعالى تلك الأخوة بالرغم مما حصل منهم، بل أثبتها لهم، لتفيد أن اختلاف الإخوة لا ينتزع منهم أُخوتهم، فالذي ينتزع ولاء الأخوة هو اختلاف الملة، وأما ما يظهر من المشاحنات والتحاسد فإنه لا يلغيها، بل يلزم الحكمة في التعامل معها، كما فعل يوسف مع إخوته، فكسب ودهم وود أبيه في نهاية الأمر.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من حال إخوة يوسف ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد بدأ إخوة يوسف بتحليل حال يوسف وأخيه بنيامين، الذي هو أخ ليوسف، لأمه وأبيه. والبقية أخوته لأبيه دون أمه، بأنهما ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ فوالدنا يعقوب يحبهما أكثر منا، وهذا خلاف ما يجب، إذ أن الحقيقة التي يجب أن يكون عليها أبونا خلاف ذلك. وهذا التحليل هو وفق رؤيتهم، وقد تكون الحقيقة خلاف ذلك. ثم انتقلوا إلى ما يجب على أبيهم تجاه حبه لهم، وذلك وفق تحليل العلة التي توجب عليه أن نكون نحن أحب إليه من يوسف وأخيه، وهي ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ فنحن مجموعة أكثر عدداً، وهم أقل عدداً، فبنوا أمر حكمهم على قضية العدد، وأن المحبة التي يجب أن تكون وتتحقق هي لمصدر القوة التي لم يراعها والدنا يعقوب. مما أثار عندهم التعجب والاستغراب، فبنوا على هذه المقدمة والنتيجة نتيجة أخرى ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ إن أبانا يعقوب مخطئ في رأيه، فإنه قد دخل في عدم حُسن التدبير الواضح الذي لا لبس ولا شك فيه. فقد ضل الصواب الذي يستلزم منه تقديم محبتنا على يوسف وأخيه، لأننا أكثر نفعاً له بكثرتنا. وجملة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ تدل على أنهم متحدون فيما بينهم، وأن أمرهم واحد، ويتقوى بعضهم ببعض، وأنهم لحمة واحدة دون غيرهم. مما يفيد الحذر من التفاف بعض الإخوة على بعض دون الآخر، فإنها تجعل وتُكَوِّن بينهم أحزاب وتكتلات ضد بعضهم البعض، وتستقوي كل مجموعة على الأخرى بما بينهم من الاتحاد والترابط. وقد تم بناء حكمهم وفق مقدمات وعلل خاطئة، ثم تحليل لتلك العلل، ثم الحكم والوصف لحال أبيهم يعقوب بأنه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ بل أكدوا هذا الضلال بأنه ﴿مُّبِينٍ ﴾ واضح جلي، لا يحتاج إلى استجلاء واستيضاح. وإزاء هذا الفهم الخاطئ، فإن الأب ليس مسؤولاً عَمَّا يدور في أذهانهم وبينهم فيما يتداولونه من تحليلات، وأحكام.

وهذا الموقف يعطي دروساً ومواعظاً وعبراً عظيمة، وخاصة فيما سيؤول بهم إليه، فمن ذلك أن التحليل الخاطئ، يؤدي إلى قرارات خاطئة، وأن المجموعة أو الفرد قد يُوهم نفسه بما ليس له حقيقة، وقد يصور الأمور على غير حقيقتها، وذلك بدعم من الشيطان. فبدأوا بالتحليل، المبني على ما يعتقدون ويظنون من غير دليل ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ فلا يمكن أن يقع من نبي الله تعالى يعقوب عليه السلام إظهار مزيد محبة ليوسف وأخيه عن بقية أبنائه، حتى وإن كانا أحب إليه في قلبه لميزة بر، وحُسن أخلاق، فإن نبوته ومعرفته وخوفه من الله تعالى تمنعه من أن يُظهرها في تعامله معهم، فَيُقَدِّم يوسف وأخيه على بقية أبنائه، كما أن إخوة يوسف قد يتأولون نباهة وفضل الفاضل بما حباه الله تعالى من الحظوة الخاصة في عقله وجماله وبره، بأن له زيادة حب تبعاً لذلك، ويؤازر ذلك أنهم عللوا ما يجب أن يكون عليه أبوهم هو ما يناسب

كثرتهم، لأنهم عصبة، فهم المجموعة الأكثر عدداً ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ وهو الأمر الذي لا يمكن أن يكون الحب متعلقاً ومرتكزاً بمن هم أكثر عدداً، بل هو مرتبط بالأكثر براً وصلاحاً. مما يفيد أن مرتكزات التحليل الخاطئ تؤدي إلى نتائج خاطئة. فكيف تستلزمون وقوع زيادة الحب لمزية الكثرة. مما يفيد أنهم طمعوا لكثرتهم أن يحصلوا على مزية حب تفوق يوسف وأخيه، والله تعالى أجَلُّ وأعلم.

ثم تدرج بهم التحليل والاستنتاج الخاطئ إلى التفكير الخاطئ، والقرار الخاطئ، وذلك بقتل يوسف عليه السلام ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ وقياساً على هذا القرار الخاطئ بقتل يوسف أو إبعاده في أرض مجهولة يدل على أن استنتاجهم عن حب أبيهم ليوسف وأخيه أكثر منهم، هو فهم وتصور واستنتاج خاطئ، ومخالف للحقيقة. وهنا وضعوا خيارين للتخلص من يوسف، الأول: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ بأن يدبروا له أمراً، فيقتلوه فيه مباشرة، أو بسبب غير مباشر، يحقق لهم موته، والخيار الثاني: ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أي: ألقوه وأودعوه في أرض مجهولة بعيدة. وحددوا أن تكون تلك الأرض مجهولة لأبيهم، ومجهولة ليوسف ﴿ أَرْضًا ﴾ لأنها نكرة، حتى يتم ضمان عدم التقائها أبداً، فيهلك يوسف في تلك الأرض. ثم ذكروا علة التخلص من يوسف ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فمرادهم هو الخلوة والاستئثار والانفراد بمحبة أبيهم لهم، وهذا دليل على عمق محبتهم لأبيهم، وأن يعقوب عليه السلام قد عامل أبناءه جميعاً بالمعاملة الكريمة التي غرست فيهم محبتهم لأبيهم إلى درجة الرغبة في الاستئثار بها عن يوسف وأخيه. وأنهم يرون في يوسف وأخيه مزاحمة لهم بفضلهما عليهم، بما حباهما الله تعالى وخصهما به من فضل، حتى اعتقدوا أنهما أحب إلى أبيهم منهم. فتولد عند أخوة يوسف الحسد، مع معاونة الشيطان الذي يُلْقي العداوة بين الناس. وهذا يفيد أن على الأب محاربة ما يمكن أن يكون من خواطر بين الأبناء، بقدر ما يستطيع، وأن بعض الأبناء يتنافسون في مواقعهم من أبيهم، ولا يمنع ذلك من صلاحهم في بقية الأمور، كما سيتضح من قادم وقابل قصة أخوة يوسف من طلب المغفرة لهم، واعترافهم بالخطأ، واعترافهم بما منح الله تعالى أخاهم يوسف وآثره عليهم.

ولما أن الجريمة تؤرق صاحبها، فقد بحثوا عن ما يُحْدِث لهم طمأنينة النفس، قبل وبعد الجريمة، فبنوا ذلك على عزمهم على الصلاح في قابل أمرهم، بعد قتل يوسف، أو رميه في أرض مجهولة. وذلك حتى تطمئن نفوسهم من إثم وأثر فعلهم الشنيع الذي يتباحثون فيه، فقالوا ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ فبعد

قتل يوسف نمحو ذنوبنا بإصلاح أنفسنا، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أضمروا التوبة قبل الذنب[1] فتكونون صالحين بالتوبة، وفي هذا دليل على أنهم يُقِرُّون بأن فعلهم بقتل يوسف أو إبعاده، بطرحه في أرض مجهولة، فلا ينجو منها، ولا يعرف كيف يخرج منها، بأنه جريمة اعتداء، وجناية عظيمة، وأن النجاة من إثمها أمر صعب جداً، ومن وجه آخر فيه دلالة على إيمانهم وخوفهم من الله تعالى، غير أن الحسد تغلب عليهم، مع ما للشيطان من استدفاع لهم نحو العداوة، ثم الوقوع في جريمة عظيمة. مما يبين خطورة الحسد، وقوة تأثيره على تصرفات الإنسان، كما أن التفكير الخاطئ، يعتمد على التبرير والوسائل الخاطئة، بينما قال هابيل لأخيه قابيل الذي عزم على قتله في سورة المائدة ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وفي ترتيب أمورهم بهذه الكيفية، وأنها تنتهي بصلاحهم حسب تصورهم، ما يدل على قصور العقل والفكر، خاصة إذا لم يستحضر إرادة الله تعالى، وتدبيره للأمور. فقد جعلوا مسيرة تصريف الأمور لأنفسهم ولغيرهم كما يخططون لها، ولله تعالى ما يشاء من التدبير والتصريف، وإفساد المكائد، وأنه لا أحد يستطيع منع خير أراده الله عَزَّ وجل لعبد من عباده، أو لخلق من خلقه، مهما جمع من التدبير والحيل، وتعمق في التفكير والاستنتاج والتدبير، حتى ولو اجتمع له الناس أجمعون. مما يدل على جهل ومجاهل النفس البشرية، خاصة عند ركونها لتفكيرها وقدراتها، حين إرادتها لأمر من الأمور. مما يبين أن الإنسان عندما يفكر في معزل عن الحق وعن إرادة الله تعالى، فإنه يجنح به التفكير للهاوية، ثم يدفعه ويعينه الشيطان لما يندم عليه، ويضعه فيما كان يحذر منه.

ومن دوافع تخطيطهم ليوسف عليه السلام بالقتل، اعتزازهم بكثرتهم، فإنهم عبروا عن أنفسهم بالكثرة، بأنهم قوم ﴿ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ مما يفيد أن كثرتهم كانت تشكل لهم قوة واعتزازاً بها، ودوافع قد ساعدتهم على التعالي على يوسف. مما يوجب الحذر من الإعجاب، فإنه يؤدي بالإنسان إلى التمادي والطيش، والبعد عن الحق. فقد فكروا وخططوا، وطرحوا الخيارات والبدائل، ثم المعالجة التي ترفع عنهم فيما بعد لائمة النفس. ولكن لله تعالى إرادة ومشيئة فوق كل إرادة، وفوق كل مشيئة.

ويخبر الله تعالى بما كان من إخوة يوسف من التشاور في شأن قتله أو طرحه في أرض لا يعرف كيف يخرج منها، فاقترح أحد الإخوة ما ذكره الله تعالى عنهم ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ فعندما أراد الله تعالى الحياة ليوسف عليه السلام

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٧/٢)

صرف فكرهم وقلوبهم عن قتله إلى ما اقترحه القائل من إخوته ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ لا تفكروا في قتله، ولا تختاروا هذا المقترح، ليدرك الإنسان أن الله تعالى إذا أراد لعبده خيراً فإنه لا يستطيع أحد أن يمنعه، مهما كانت قوته، ومهما اتسع فكره، فإن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة. فقد أراد الله تعالى ليوسف عليه السلام النبوة والتمكين في الأرض.

وفي طلب عدم القتل ما يبين أن أحدهم رأى أن أمر يوسف لا يستوجب القتل، وإنما الإبعاد أحسن الخيارين، والأفضل في تحقيق هدف خلوتهم بأبيهم. فاقترح أحد إخوتهم عليهم أن يرموه في البئر ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ فألقوه في غور البئر، لأن غيابة الشيء: غوره وبعده الذي يغيب فيه ما يوضع فيه، وكل شيء غَيَّب شيئاً فهو غيابة. والجب هو البئر. ومن دلالة البيان جمعه بين الغيابة والجب، ليكون أدعى لقبول فكرته، والصد والتحول عن فكرة القتل، لأن ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ توحي لهم المبالغة في إخفائه، لما في غيابة الجب من الظلمة والوحشة.

ثم ذكر لهم ميزة وضعه في الجب ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ فقد يجده بعض من يسيرون في الطريق فيأخذونه معهم إلى ديارهم، فيبعدونه عنكم من غير الوقوع في جريمة القتل ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن أنتم أضمرتم له ما تريدون، فأشير عليكم بهذه المشورة. وهنا لم يطرح عليهم هذا الرأي البديل عن القتل على أنه واجب لا يحيدون عنه، وأنه يلزمكم الأخذ به، بل ربطه بحالة الاختيار ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ إن أردتم الفعل الأفضل، والخيار الأحسن من الخيارات البديلة عن القتل. وهذا الأسلوب أدعى لهم للتفكير فيه، والأخذ به، لأنه جاء بأسلوب الطرح للمناقشة، وليس بالجزم به، وعدم الحياد عنه، فترك الرأي للجميع في تداوله، وهذا يدل على حنكة أخيهم المتكلم بهذا الرأي، وقدرته على سياسة الأمر. وبلا شك أن هذا الفعل جريمة في حق أبيهم، وفي حق أخيهم، إذ أن فيه حرمان الأب من ولده، والابن من أبيه، ومن مطارحه وبيئته التي عاش فيها، وما قد يتعرض له من الرق، أو الموت. ولكن الله تعالى خير حافظ سبحانه وتعالى.

ثم انتقل البيان القرآني مباشرة إلى بيان منهجية تنفيذ فعلتهم الشنيعة، بوضعه في غيابة الجب، وورد البيان بأسلوب يتفاعل معه السائلون عن قصة يوسف عليه السلام، وغير السائلين ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ فدل خطابهم لأبيهم أنهم اتفقوا على مقترح أخيهم، وبدأوا في تنفيذ ما عزموا عليه، بالمكر بأبيهم من خلال استعطافه بأن يأذن لهم في أخذ يوسف عليه السلام معهم. فركنوا في استعطاف أبيهم يعقوب على إزالة المانع من استئمانهم على يوسف عليه السلام، بطريقة السؤال الذي يستنكرون

فيه ممانعة أبيهم ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وبدأوا خطابهم بنداء أبيهم بعاطفة الأبوة ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ﴾ وهو ما يدل على الاحترام في الخطاب، والاستعطاف في الكلام ﴿ مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ لماذا لا تستأمنَّا على يوسف، ما الذي يمنعك من ذلك. مما يدل على أن يعقوب عليه السلام كان لا يسمح ليوسف بالخروج مع إخوته، إما خوفاً عليه ابتداء، أو شعر من سلوك إخوته ما جعله يخاف على يوسف منهم، وهم قد عرفوا بخوف والدهم على يوسف منهم، ولذلك أعلنوه لأبيهم، لماذا لا تثق في أمانتنا ليوسف؟ بقصد إزالة هذا التخوف الذي يمنعهم من تنفيذ مرادهم، وأكدوا لأبيهم ما يزيل هذا الخوف ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أي نسعى فيما ينفعه ويحفظه من كل ما يسوء.

فبعد إزالة الممانعة من أبيهم، طلبوا أن يبعثه معهم عند رعيهم للماشية ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فابعثه معنا غداً إلى مراعي الصحراء، يسعى وينشط، ونحن ليوسف حفظة له من المكاره، فنحفظه ونحوطه، فذكروا الهدف من خروجه معهم بما يَسُر والدهم، ويَسُر يوسف، وهذا أدعى لقبول الموافقة على خروجه، مع تأكيد الحفظ له مرتين، مرة بالنصح له ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ ومرة بالحفظ ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وفي كلا الأمرين كان التعهد منهم بضمير المتكلم، الذي أفاد تضامنهم في الحفظ ﴿ وَإِنَّا ﴾ وهم غير صادقين في مقولتهم، ولكن للاستدراج. وكلمة ﴿ يَرۡتَعۡ ﴾ تعني الأكل، أي ينعم ويستأنس بذلك مما يكون في المراعي. وكلمة ﴿ وَيَلۡعَبۡ ﴾ ما يكون من الجري، والرمي، والحركة التي يستأنس بها مع إخوته، وما يكون بينهم من استئناس المزاملة والمرافقة والمؤاخاة. فيدفع بها السآمة، ويحصل بها الاستجمام.

فرد على أبنائه بما يصرفهم عن طلبهم بعلتين، الأولى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ إن ذهابكم بيوسف، يُبعده عني، وهذا يجلب مشقة الحزن عليَّ، مما يفيد أنه كان صغيراً في سنه، ومما يؤكد صغر سنه مما سيأتي عن تعريفه من قبل الذين أخرجوه من البئر، وقالوا عنه غلام. والعلة الثانية ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ ومع ما يصيبني من حزن، أخاف أيضاً عليه من الذئب أن يأكله، وهو نوع من فصيلة الكلاب. وعلل خوفه من أكل الذئب له، لما قد يحصل من الغفلة منهم أثناء ذهابهم به وغيبتهم عنه ﴿ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ وفيه تنبيه لهم بعدم الغفلة عن يوسف عليه السلام، وكذلك التنويه لهم بأنه ربما تأتوني

بقولكم أكله الذئب، فكيف أقبله منكم وقد نبهتكم بهذا الأمر. وربما استشعر ذلك، أو ربما بسبب معرفته لما في الصحراء من الذئاب المفترسة، أو ربما أوحي إليه، وقد ذكر أهل التأويل أقوالاً، من بينها: ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف، قاله أبو صالح عن ابن عباس[1] ولا يمنع اجتماعها كلها في نفس يعقوب عليه السلام، فيخاف من حدوث شيء منها، لِمَا يعرفه عن الصحراء، ووجود الذئاب فيها، وتخوفه عليه من إهمال أبنائه ليوسف، وما رآه في منامه. وقد يكون من باب التحذير فقط من الاحتمالات التي يمكن أن تحدث.

فرد أبناء يعقوب عليه السلام على أبيهم بما يجعله يتجاسر على نفسه، فيوافق على ذهاب يوسف معهم ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فردوا على أبيهم بتقريرهم الجازم عن استحالة أن يأكله الذئب وهم جمع كثير ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ فكأن هذا أمر مستحيل، مع كثرتنا، حتى أصبحنا ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أي: كثيرون العدد، ومتحدون فيما بيننا، وأن أمرنا واحد، ويتقوى بعضنا ببعض، وأننا لحمة واحدة دون غيرنا. فلئن أكله الذئب مع هذه الصفات فإنه لا نفع فينا ﴿ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فقد خابت وخسرت كثرتنا ووحدتنا والتفافنا ببعض، وقد انتفى النفع منا إذا هذه حالنا مع هذه الكثرة والاتحاد، فهذا لا يمكن أن يكون منًا. فهو تبرير مقنع على ظاهره. مما يعطي دلالة على أن الحسد والغيرة التي تتجاوز حدودها فإنها تفعل في القلوب ما يحطم قوة المحبة والبر لأقرب الناس، وهو الأب، والنبي، والمتصف بالعطف عليهم، والمحبة لهم، وأن الحسد يؤدي إلى الطغيان على الأخ بسبب ما فضله الله تعالى به. وفي إقناعهم لأبيهم بشأن يوسف عليه السلام دليل على حرصهم في الحصول على إذنه وموافقته، ولو لم يكن كذلك لخطفوه خطفاً، وذهبوا به حيث يريدون، وقالوا لا نعلم عنه شيئاً، ولكن يظهر أنهم كانوا في معاناة نفسية قوية، بين تحقيق مرادهم وإرضاء مشاعر أبيهم. فهي حالة ليست بالأمر السهل، ولكن قوة الحسد تغلبت على قوة بر الوالد، ورحمة الأخ الصغير.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٥/٤)

ثم ينتقل الإيضاح الكريم الجميل إلى بيان مغادرة الإخوة وتوليهم عن مطارحهم إلى ما أرادوا من الشر بيوسف عليه السلام، بعد أن أقنعوا أبيهم أن يأذن لهم بأخذ يوسف معهم ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ فلما أخذوا يوسف من أبيه، وذهبوا به معهم ﴿ وَأَجۡمَعُوٓاْ ﴾ فاتفقوا عازمين على أن يجعلوه في غيابة الجب، وهو قعر البئر، أوحى الله تعالى ليوسف بما يطمئنه ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ ففي ذلك الوقت الذي عزموا أن يلقوه في غيابة الجب، بعد أن خلوا به عن أبيه، وأصبح معهم وبين أيديهم، وعلم بأنهم سيرمونه في البئر، حصل ليوسف من الله تعالى ما يقوي قلبه ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ ﴾ فأوحى الله تعالى إليه بما يطمئنه، ويربط على قلبه، لأنه أمر مفزع وجلل عظيم، مما يدل على عناية الله تعالى ورحمته بيوسف عليه السلام ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فإنه سيبلغ بك الأمر يا يوسف أن تلتقي بهم، وتنبئهم وتذكرهم بما فعلوا بك، وإخوته لا يشعرون بما أُوحي إلى يوسف عليه السلام، وذكر ابن عباس رضي الله عنهما: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك، ولا يشعرون بك. وعنه أيضاً رضي الله عنه: أنه لما دخل إخوة يوسف عليه، فعرفهم وهم له منكرون، فأخبرهم بما كان منهم[١] ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فلم يشعروا بما حصل ليوسف عليه السلام من الوحي الذي ربط الله تعالى به على قلبه، مما يبين عظمة الله تعالى، وحُسن تدبيره، ورعايته، فإن الله تعالى إذا أراد لعبد خيراً نجاه من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين. مما يعلم المؤمن أن يستعين بالله تعالى، ويتوكل عليه، فهو المنجي، وهو الناصر، فسبحان الله القوي العظيم الرحمن الرحيم.

وذكر السدي وغيره عن إيذاء يوسف عليه السلام: أنه لم يكن بين إكرامهم له، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول: من الشتم ونحوه، وبالفعل: من ضرب ونحوه[٢] مما يبين قدر الحقد الذي تولد عن الحسد. ونقل ابن جرير رحمه الله تعالى أنهم دلوه في البئر، حتى إذا بلغ نصفها، ألقوه، إرادة أن يموت، وكان في البئر ماء، فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها، فقام عليها[٣] وهذا من لطف الله تعالى وعنايته، حتى لا يسقط على تلك الصخرة، فيتكسر جسمه، وربما مات من أثرها، ولكن جعلها الله تعالى له متكأً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٨٨)

(٢) المرجع السابق (٢/٤٨٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٣٠)

ثم يخبر الله تعالى بما كان منهم عند عودتهم لأبيهم ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ فجاؤوا إلى أبيهم وقت العشاء، الذي هو وقت عتمة الليل، بعد أن غاب الشفق، وهم يبكون تصنعاً للبكاء، ففعلوا فعل من يبكي حقيقة، تلبيساً لمكرهم، وتغطية لفعلهم، وإيهاماً لأبيهم بأن ما سيذكرونه هو الحقيقة التي تتحدث حالهم عنها ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ فقالوا: إننا ذهبنا نتسابق فيما بيننا، فتباعدنا عن يوسف الذي تركناه عند امتعتنا وأغراضنا ﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ من الثياب والزاد، وبينما نحن على تلك الحال عدا عليه الذئب ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ بما يفيد أنه لم يبق شيء منه ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ وما أنت بمصدق لنا فيما نقول، بما يعني أننا عارفين وعالمين بأنك لن تصدقنا، فإن طمعنا في تصديقك لنا غير وارد عندنا، وهو من باب حث أبيهم على تصديقهم، لإظهار واستحصال شفقته عليهم بالتصديق. قال الزجاج: والمعنى: ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القضية، لشدة محبتك له[1] أي فإنك ستتهمنا في حقيقة الأمر حتى ولو كنا صادقين، فإن صدقنا محل نظر واتهام عندك، لفرط حبك ليوسف.

ولتأكيد صحة زعمهم ابتكروا دليلاً كذباً وزورا ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ فأحضروا قميص يوسف عليه السلام وقد تلطخ بدم مكذوب، ليس بدمه، فقد يكون دم حيوان كالماعز أو ظبي، أو أي حيوان آخر. بما يفيد إمعانهم في التفكير، والبحث عن كل ما ينفي عنهم الجرم، ولكن يعقوب عليه السلام أدرك كذبهم، ربما من تأويل رؤيا يوسف التي لم تتحقق، ولن تتحقق حتى يبلغ العمر والسن الذي يكون مناسباً لتحقق تلك الرؤيا، وكذلك استدل بما لم يجده من أثر أنياب الذئب على قميص يوسف، فأدرك بتلك الأدلة كذبهم فيما قالوا، ولذلك كان جوابه على قولهم: هو تكذيبهم، وعدم تصديقهم ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ فليس الأمر كما قلتم، بل زينت لكم أنفسكم خلاف ما وصفتم وذكرتم، بما يفيد من الأمر خلاف ما ذكرتم، فهناك أمر حقيقي تخفونه عن ما فعلتم بيوسف، ولكن علاجه هو الصبر عليكم وعلى افترائكم، وعلى ما حل بيوسف من الظلم ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ ووصف الصبر بالجميل، بما يفيد أنه سيصبر صبراً لا شكوى فيه، ولا جزع معه، بل صبر مع أمل، بأن يُظهر الله تعالى الحقيقة، ويعود يوسف إليه، ويجتمع به، ثم أردف صبره بالاستعانة بالله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فالله تعالى هو المعين على إظهار وبيان ما تصفون من الكذب في حقيقة أمر يوسف. فأعطى يعقوب بهذا التوكل وهذا الأدب ما يجب أن يكون

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١١/٣)

عليه المسلم في مواجهة مصاعب الدنيا، والمنهجية العملية التطبيقية، بأن يتحلى بالصبر، ويستعين بالله عَزَّ وجل، وأن يتعامل مع أبنائه الذين أخطأوا في حقه وفي حق يوسف بالحكمة، إذ لم يرتب ويبني على عقوقهم به، وظلمهم ليوسف أن يطردهم، أو أن يستخدم معهم أي وسيلة تشعل النزاع بينهم.

﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى حال يوسف عليه السلام، وما كان من أمره في غيابة الجب، وكيف أنقذه الله تعالى من البئر، واعتنى به عَزَّ وجل، وجعل الشر عليه خيراً ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ فأتت إلى البئر جماعة من الناس يسيرون، وهم السيارة ﴿سَيَّارَةٞ﴾ أي جماعة يمشون في الأرض ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ فبعثوا منهم من يستقي لهم الماء من البئر، وهو ﴿وَارِدَهُمۡ﴾ أي الذي يرد لهم الماء ليستقي لهم. فعندما وَرَد الماء، أي وصل إلى البئر، فقام بإدلاء الدلو ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ أي أنزل مُرْسِلاً ﴿دَلۡوَهُۥ﴾ وهو عبارة عن إيناء كبير من الجلد مطوي ومربوط بحبل، فيُنْزِلَهُ رمياً بقوة إلى قاع البئر لكي يمتلئ بالماء، ثم يسحبه رفعاً بالحبل إلى الأعلى وقد امتلأ ماء. وفي طلب السيارة للماء من هذا البئر ما يبين رحمة الله تعالى وتدبيره ليوسف عليه السلام، فساق إليه هذه السيارة من الناس لِيُخرجوه من البئر. ليتبين للإنسان قوة سلطان الله تعالى وتدبيره، فهو المنقذ وهو المنجي، وهو أرحم الراحمين.

ثم انتقل السياق إلى النتيجة التي تحصل عليها هذا الذي أدلى دلوه، فقال مبتهجاً مسروراً بما تعلق بدلوه الذي أدلاه في البئر ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ ﴾ فأظهر سروره بكل قوة ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ التي تعطي معنى التعجب مع الفرح والسرور، وايضاً إعلام السيارة الذين معه بما وجد، فنداؤه للبشرى هو نداء للمخاطبين الذين معه، لأن البشرى نفسها لا تعقل، فيتحول المعنى مباشرة إلى المخاطبين، والذي يدل على أنهم لا يرون الساقي لهم، لوجود ما يمنع رؤيتهم له، أو ما يمنع دقائق حاله. ففرح به، في حين أن إخوته رموه كارهين له،

فيجده من يفرح به فرحاً لا حدود له. مشيراً ومعلناً بأن البشرى هي غلام بدل الماء، أو مع شيء من الماء. والبشرى تكون في الشيء المفرح غير المعلوم، أو تكون في الشيء المعلوم المنتظر، غير المعروف نتيجته. فابتهاج بالغلام، لإمكانية تربيته، وتوجيهه للخدمة، أو بيعه بثمن. والغلام هو صغير السن.

ثم يتدرج البيان إلى بيان صنيعهم في يوسف ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ فجعلوه من عروض التجارة، كالبضاعة، فقد أرادوا الاتجار ببيعه، وتأتي بمعنى: أسروا في أنفسهم أنهم جاعلوه بضاعة يبيعونه، ويربحون ثمنه، وتأتي بمعنى الإسرار بوضعه وحاله، بأن يخفوا أمره عمَّن معهم، من أصحابهم على أنهم ابتاعوه من أهل الماء، أي أن الساقي لهم والقائمين على أمر القافلة، أو أمر الرفقة، اتفقوا على اخفائه عن البقية حتى لا يشاركونهم في ثمن بيعه. وقد ذكر تلك الأقوال علماء التفسير رحمهم الله تعالى(١) ويمكن أن تجتمع جميعها، لتكتمل بها صنيعهم به، فيكون أنهم أسرُّوا في أنفسهم أن يجعلوه كعروض التجارة لبيعه، وأَسَرَّ هؤلاء القائمين على أمر السيارة هذا الاتفاق عن بقية المرافقين لهم، بأنهم ابتاعوه من أهل الماء. وهذه الدلالات مستنبطه من كلمتين ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ ليتبين غزارة المعاني، وفيض الدلالات، مع بلاغة البيان، التي تدل بلا خلاف على إعجاز هذا القرآن الكريم، وأنه بلغ من البلاغة البيانية ما يعجز عنه العباد.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم علمه الدال على عظيم تدبيره ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فإن الله تعالى عالم بما يعمله الباعة، وبما سيعملونه، وبما سيكون من أثر ذلك على يوسف عليه السلام، بما يفيد تمام وكمال عناية ومعية الله تعالى، وعظيم تدبيره ليوسف ولمن وجدوه، ليعطي المؤمن درساً في التوكل على الله تعالى، فإنه عليم بما يدور، وبما يُحاك، وبما سيؤول إليه الأمر، فإنه عَزَّ وجل عليم، وذو سلطان عظيم، وأنه غالب على أمره. فلا غالب إلا الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن ظفروا بيوسف عليه السلام باعوه ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ وشروه بمعنى باعوه. يُقَال: شريت بمعنى اشتريت. وشريت بمعنى بعت(٢)﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ فباعوا يوسف بسعر ناقص عما يستحق، فمن الذي باعه؟ ومن الذي اشتراه؟ فبحسب السياق أن الذي باعه هم أهل السيارة الذين أخرجوه من غيابة الجب، فباعوه عندما وصلوا مصر، واشتراه منهم عزيز مصر. وقيل: إن إخوة يوسف كانوا قريبين من البئر، يتلمسون ما يحصل ليوسف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٤٦-٤٩) وابن الجوزي (٤/١٥٠-١٥١) وغيرهما
(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٩/١٠٢)

عليه السلام، مما يدل على أن الفاعل يعود لجريمته حتى يرى ما تم في شأنها. فلما رأوه مع السيارة، قالوا لهم: هذا لنا، فباعوه على السيارة، بثمن ناقص عما يستحق فعلاً ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ فمع بيعهم له، كانوا زاهدين فيه، يريدون الخلاص منه، وإبعاده عن مطارحهم وقريتهم أو مدينتهم. وأكد سبحانه وتعالى قلة الثمن بأنها ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ بما يفيد قلتها. ورجح كثير من أهل التفسير أن الذين باعوه هم إخوته[١] وعن ابن عباس، وابن مسعود: باعوه بعشرين درهما، أخذ كل واحد من أخوة يوسف درهمين، وكانوا عشرة، وقيل بغير ذلك من الأسعار، وما روي عن الصحابة أولى[٢] وقال ابن الجوزي عمن باع يوسف: إنهم إخوته، وهو قول الأكثرين[٣]

وقد وردت ثلاث صفات لعملية البيع، الصفة الأولى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ والتي تبين الجهل بما يستحقه من الثمن، وتبين الرغبة في سرعة التخلص منه، وأن التخلص منه هو الثمن الحقيقي لهم، وليست الدراهم، والصفة الثانية للبيع هي: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ والتي أوضحت قلة المبلغ المقبوض، بأنه موصوف بصفة التقليل ﴿مَعْدُودَةٍ ﴾ أي مبلغ زهيد حتى في عدده الذي لا يتوافق مع القيمة الحقيقية للمبيوع، بأن المبيوع لا يستحقه، بما يؤكد الرغبة في سرعة التخلص، وأن الثمن لم يكن هو المعتبر عندهم، بل التخلص هو المطلب الرئيس، والصفة الثالثة لعملية البيع ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ وهذا تأكيد ثالث، وتعزيز رغبتهم في سرعة التخلص، حتى أنهم زهدوا فيه، وفي الثمن الذي يستحقه مثله، وورد السياق بأنهم من فئة الزاهدين ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ وفي هذا رفع مستوى زهد إخوته فيه، حتى أن السياق الكريم لم يرد بأنهم كانوا فيه زاهدين، بل ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ أي من فئة الزاهدين، الذين لا يطلبون به مالاً، بل يطلبون به تخلصاً منه.

وقد يكون هذا التفاوض والبيع على مرأى ومسمع من يوسف عليه السلام، وبالتالي سيكون له أثره في نفسه، ولكن يربط الله تعالى على قلب من يشاء. فتلك دروس يمر بها يوسف عليه السلام، ليتعرف بها على ما سيعينه فيما هو قادم عليه في حياته. فإن الله تعالى قادر على أن لا يمر يوسف عليه السلام بما مَرَّ به من الأحداث، ولكن لتكون دروساً له ولمن بعده من العباد، وكذلك إعداداً له فيما سيواجهه في قابل حياته.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢/١٣) وابن كثير (٤٨٩/٢)وابن الجوزي (١٥٠/٤) وغيرهما

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٣/٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٠/٤)

وفيه كذلك تنويه للنبي صلى الله عليه وسلم، بما مر به يوسف عليه السلام من الابتلاء، مع نبوته، ونبوة أبيه يعقوب، وجده إسحاق، وإبراهيم جد أبيه يعقوب، وأن الابتلاء يحصل لأوليائه، ولكنه ينجيهم الله تعالى من كل بلاء وابتلاء، وكذلك فيها موعظة لكل مؤمن، وبما في ذلك من الدروس التي لا حصر ولا حدود لها.

ثم يخبر الله تعالى بانتقال يوسف عليه السلام إلى مصر ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلما ذهبت السيارة بيوسف عليه السلام إلى مصر، اشتراه منهم عزيز مصر، وكان محل إعجاب منه، فأوصى عليه امرأته ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ أكرمي مقامه ومنزلته، وذلك لأحد هدفين، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ فالهدف الأول ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ فرجاء أن نحصل به على منفعة الخدمة لنا، كخادم لنا فيما نحتاج إليه. والهدف الثاني ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أو قد نجد فيه من اللطف ما يجعلنا نتخذه ولداً، فيكون في منزلة الولد في الاستمتاع الأبوي، بما يفهم منه أنه لم يكن لهم ولد. وهما خياران يتحقق بهما العناية بتربيته، وتوجيه التوجيه الذي يتحقق به أحد المقصدين من شرائه وتربيته والعناية به. مما يبين كيف هي عناية الله تعالى بيوسف عليه السلام، إذ سخر له من يعتني به عناية الأبوين بولدهما.

وهذا يفيد أن عزيز مصر قد أُعجِب بيوسف، وتوسم فيه خيرا، مما يبين قدرة الله تعالى وحكمته في تدبير أمر يوسف عليه السلام، حتى استوصى به عزيز مصر امرأته خيراً، وأمَّل فيه منزلة الولد. فإذا أراد الله تعالى لعبده خيراً، عطف القلوب عليه. فانتقل يوسف عليه السلام من إخوته الزاهدين فيه، إلى من استبشر به خيراً عند إخراجه من البئر، ثم إلى من أوصى بالاعتناء به عليه السلام. وقد رغب عزيز مصر في إكرام يوسف والعناية به، من خلال أمرين: الأول: وضع الأمل ﴿ عَسَىٰٓ ﴾ والتي تفيد الرجاء، أو الترجي في الأمر المحبوب، والأمر الثاني: ترغيب زوجته في هدفين سعيدين لهما، إما تحصيل الانتفاع به في خدمتهم، أو استلطافه ليكون ابناً لهما إن كان أهلاً لذلك، وفي كلا الحالتين يحتاج الأمر إلى كريم الاهتمام، ولطف العناية التربوية من كل وجه.

ثم يخبر الله تعالى بما امتن به على يوسف عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وكما نجيناه من إخوته، وأخرجناه من ظلمة الجب، وعطَّفنا قلب العزيز عليه، هيأناه وصيرناه إلى المنزلة الرفيعة، التي تُمَكِّنُهُ من أرض مصر، فجعلناه متمكنا بالأمر والنهي على خزائنها. وكلمة ﴿ مَكَّنَّا ﴾ تفيد

أن الله سبحانه وتعالى جعل ليوسف قوة وقدرة التصرف في أرض مصر، كتصرف المالك لها، لا أحد ينازعه في الأمر، وأن أمره وقوله نافذ. وقد نسب عَزَّ وجل التمكين له جَلَّ جلاله ﴿ مَكَّنَّا ﴾ فمنحه سبحانه وتعالى التمكين الذي يعطي دلالة التثبيت من حيث الأداء والتصرف. مما يبين أن الله تعالى إذا مكَّن أحداً، فلا يستطيع أن يتغلب عليه أحد. وتفيد مجريات أحداث يوسف عليه السلام: أن التمكين من الشيء له أركانه وأسسه، التي هي مقدماته، فقد حِيلَ بينه وبين أبيه، وكاد له إخوته، ورموه في الجب، وبيع كما تباع البضائع والعبيد، فتعلم يوسف عليه السلام مما مَرَّ به أموراً عظيمة، والتي منها، مرارة الظلم، وأثر قوة الحسد، وما ينتج عنه من البطش، وأهمية الصبر، وتدبير الله تعالى للأمور، وقدرته وحكمته التي لا يجاريها خلق من خلقه ولو اجتمعوا، وأهمية التوكل عليه عَزَّ وجل، وأهمية سياسة الأمور بحكمة. وأن من يمنحه الله تعالى منحة فلا يستطيع أن ينازعه أو يغلبه أو يغالبه أحد، وأن الله تعالى يمكنه منها تمام التمكن بقوته وقدرته سبحانه وتعالى.

وإضافة إلى التمكين، فإنه يتحصل له العلم من الله تعالى ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي ولنعلمه العلم والحكمة وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من العلم النافع، ومنها ما تَمَكَّنَ به من إدارة مال الدولة.

والتأويل يتطلب إرجاع الشيء المؤول إلى حقيقته، بالرجوع لأدلته، فيعيد الأشياء من حوادث وأحداث وأخبار مُتَحَدَّثٌ بها إلى عللها حين بيانها وتفسيرها، فيعيدها بتوفيق الله تعالى إلى تمام عللها وأدلتها بأدق ما يكون، فيتوصل بها إلى دقائق حقائقها ومعانيها الحقيقية التي لا ريب ولا شك فيها، وقد ظهر ذلك في تصرفاته، وتأويله لرؤيا ملك مصر، وغيرها مما ورد في سيرته عليه السلام. وهذه منحة وكرامة ثانية بعد كرامة التمكين.

ثم يخبر الله تعالى بأن أمره نافذ، ولا غالب له أبداً ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ فإن الله تعالى غالب على ما أراد من قضائه، ومن ذلك أنه غالب على أمر يوسف حتى يبلغه ما أراده له. مما يبين ويفيد أن الله تعالى إذا أراد لعبد أمراً فلن تجدي القوة المضادة مهما بلغت، ولا الحيل مهما اتسعت واستوعبت لعوامل إقصاء أو إبعاد أو إنقاص ما أراده الله تعالى، فكل حدث، مهما كان ظاهره الإقصاء والمنع، والإنقاص، والسوء، فإنه لا يثبت أمام إرادة الله تعالى، فإن مآل تلك العقبات إلى الزوال أمام الخير الذي يريده الله تعالى.

وهذه قاعدة عظيمة في غرس قوة التوكل على الله تعالى، خاصة عند مواجهة العقبات، وكذلك قاعدة في تربية النفس على التوكل على الله تعالى، فإن سار العبد في أمر، فعليه أن يتوكل على الله تعالى، مع اليقين التام بأن أمر الله تعالى نافذ، وأن الأمر كله لله تعالى، مستحضراً قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ وإن واجهه أحد ببعض الموانع، أيقن أن موانعه ليس لها أثر إن أراد الله تعالى خلاف ذلك، قائلاً لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ وإن واجهته صعوبات في أي أمر وشأن قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمْرِهِۦ ﴾ وإن واجهه حاسد قال في نفسه ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ وإن رأى الأسباب معه، فلا ينخدع بها، فيقول لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ وهي عقيدة لتربية القلوب بها في كل أمر وشأن.

ثم يخبر الله تعالى عن شأن الناس في إدراك هذه الحقيقة التي هي ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ فإن أكثر العباد جاهلون بها ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره. فلو يعلمون ذلك لاقتضى الأمر منهم أن يسيروا وفق حقيقتها، من سؤاله سبحانه وتعالى، والتوكل عليه، والسير مع الآخرين بالخير، والبعد عن الشر، وانتفاء الحسد منهم، ولتحقق فيهم الرضا بما أعطى وما يعطي ويمنح ويمنع سبحانه وتعالى. وهذا على سبيل المعنى العام، وأما باعتبار ورودها في شأن يوسف عليه السلام فتعطي دلالة: أن أكثر الناس الذين زهدوا في يوسف ابتداء من إخوته، وبيعه بثمن بخس، والذين بيع بينهم من أهل مصر، فلم يكن لهم علم بما سيصير إليه يوسف من التمكين والمكانة والمنزلة والنبوة والعلم، وغيره من الأفضال الربانية، فلو علم كل أحد بذلك لتسابقوا إلى حفظه والعناية به، ولَمَا حصل من إخوته ما حصل منهم. فقد نصره الله تعالى على إخوته، وأعاد لقاءه بأبيه، ومكن له في الأرض على ما سيأتي بيانه. وفي جمع هذا البيان في سياقه الوجهين من الدلالة، ما يدل على عظمة بلاغة القرآن، وإعجازه البياني، وأن غزارة عطائه من منافع الدلالات لا حصر لها.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بحال يوسف عليه السلام عندما بلغ مرحلة الأشد، وما أنعم الله تعالى به، وما حصل له من ابتلاء ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فلما استكمل يوسف عليه السلام أشده، أنعم الله تعالى عليه بالنبوة، المشتملة على الحكمة والعلم. والأشد هي: المرحلة التي يبلغ فيها الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله. قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[١] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٢] وقال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ﴾ أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[٣] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده في سنوات هذه المرحلة، وقد أعطى الله تعالى ليوسف عليه الصلاة والسلام حكماً وعلماً في هذه المرحلة التي قد اكتمل فيها أشده. مما يفيد أن لكل شيء إعداد وتهيئة بما يناسب ما أُعِدَّ له، وأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يُعِدَّ العبد بما يجعله مستوفياً ومستعداً لما هو موعود به. مما يتطلب من الإنسان أن يُعِدَّ نفسه لما يريد أن يحصل عليه، أو يقوم به في حياته، بحسب نوع ذلك الأمر، من مهنة أو التضلع في علم من العلوم، أو تجارة، أو تكوين أسرة، أو غير ذلك، فإن سنة الله تعالى تقتضي الإعداد والاستعداد.

فأعطى الله تبارك وتعالى يوسف عليه السلام بمنه وفضله حكماً وعلماً ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ فقد أعطاه الله تعالى منحتين عظيمتين، الأولى ﴿ حُكۡمٗا ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: الفقه والعقل، وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: النبوة، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: أنه جُعِل حكيماً، وقال الثعلبي رحمه الله تعالى: أنه الإصابة في القول، وقال اللغويون: الحكم عند العرب ما يصرف عن الجهل والخطأ، ويمنع منها. وأما المنحة الثانية ﴿ وَعِلۡمٗا ﴾ قيل: الفقه، وقيل علم الرؤيا[٤] وجميع تلك المعاني هي دلالات متظافرة ومتعاضدة. فاستوفت دلالة ما أعطاه الله تعالى ﴿ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ جميع ما أنعم الله تعالى به على يوسف.

(١) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (٣٠٥/١)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢٣٥/٣) ملخص

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٤/٤)

ثم بين العزيز الحكيم أن كل محسن يناله من فضل الله تعالى ورحمته ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فكما آتيت يوسف الحكم والعلم ومكنته في الأرض، ونجيته وحفظته من المكاره وذلك لطاعته إيايَّ، وصبره على البلاء، كذلك نجزي ونعطي ونثيب من أحسن في الطاعة والامتثال، وانتهى عن المعاصي، وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإن المراد به محمد نبي الله صلى الله عليه وسلم ... فكذلك أفعل بك، فأنجيك من مشركي قومك، الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض، وأوتيك الحكم والعلم، لأن ذلك جزائي لأهل الإحسان في أمري ونهيي[١] فأعطى النص الكريم معناً عاماً وهو الأصل، بأن الله تعالى يكافئ كل محسن بما يستحق من كرم الله تعالى وفيض عطائه، وأفاد معناً خاصاً لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام باعتباره من المحسنين صلى الله عليه وسلم، فقد كان يتحنث في غار حراء، أي معتزلاً للأصنام متعبداً لله تعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى حال يوسف في قصر عزيز مصر ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فامرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها قد طلبت منه فعل الفاحشة معها ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ ولفظة المراودة ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ﴾ بصيغة المفاعلة، التي تعطي دلالة التكرار، بأن يفعل بها ما يفعل الزوج مع زوجته، وكررت ذلك عليه، كما أن لفظة عن ﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ تفيد التوضيح والتفسير، وتعيين منبع وجهة الطلب بأنه من امرأة العزيز، فأكدت وعينت جملة ﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ أن الطالبة هي امرأة العزيز، وأن المطلوب هو يوسف عليه السلام، بأن يوافقها على مرادها، وهي جملة دقيقة في الوصف إلى أقصى درجة البيان، الذي يبين ويوضح الموقف، ولكنه مع هذا قد ورد في أدب عظيم، وأخلاق زاكية وعظيمة، بحيث لو قُرِأ هذا النص على مسمع من الرجال والنساء لما أثار فيهم غرائزهم، بما يعطي ويعلم المؤمن أن يكون حديثه مفعم بالأدب، في اختيار الألفاظ، وصياغة الكلام، وهذا من إعجاز القرآن في بيانه وأخلاقه، وأساليبه في تعليم الْمُخَاطب كيف يكون نهجه عند الوصف والبيان.

وجملة ﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ بينت علاقة الصلة بينها وبين يوسف عليه السلام، بأنه في ولايتها، وفي أمرها، وبالرغم من ذلك امتنع عن مرادها. بل ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ فأوصدت الأبواب، وفيه بيان لشدة توقيها من معرفة الغير لذلك، فأوصدت جميع الأبواب المتتالية التي تؤدي إلى المكان الذي هما فيه، ويدل

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩/١٣)

على كثرة وتعدد تلك الأبواب، وكلمة ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ أفادت المبالغة في إغلاق الأبواب، أي أحكمت إغلاقها إحكاماً شديداً، وهذا من بلاغة ودقة تصوير البيان في القرآن الكريم. ودليل على شدة رغبتها، وشدة توقيها، ومنعاً ليوسف من الخروج، وكذلك شدة وقوة طمعها في تحقيق مطمعها، بأن يوافق يوسف عليه السلام على مرادها.

ثم بعد تثبتها وتحرصها من كل أمر ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أقبل وافعل ما أدعوك إليه، فرد عليها يوسف عليه السلام أمام كل ما صنعت بثلاث علل تمنعه من ذلك، الأولى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله تعالى أن أفعل ذلك، أي أستجير وألوذ واعتصم بالله أن يكون مني ذلك، مما تحاولين معي فيه. فهو الذي يجيرني ويعصمني من ذلك، والثانية: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ إن الله تعالى ربي، ومالكي ومولاي الذي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ فأكرمني بإحسانه عليَّ، فجعل مثواي، أي عاقبتي على أحسن حال، بإنقاذه من البئر، ووجوده في أسرة ذات نعيم، واهتمام وعناية به. ويجوز أن يكون مقصده من ﴿رَبِّىٓ﴾ أي عزيز مصر، الذي يتولاني بتربيته ورعايته، فأحسن إليَّ، وأوصى بيَّ خيراً، وأئتمني فلن أخونه، فلن يحدث مني ما ينافي ذلك، ورجح ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا القول، فقال: المراد بربه في أصح القولين هنا سيده، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر[1] وهاتان الدلالتان من النص تدل على عمق المعاني في القرآن الكريم، وأن الأوجه في دلالاته تعطي رحابة ومساحة واسعة لتستوفي المقاصد والدلالات من غير تكرار، فيظهر الإعجاز البلاغي في عظمة بيانه، فلا يمنع أن المراد من السياق كلا الدلالتين، وبأسلوب واحد، ليظهر الإعجاز البياني في نظم القرآن الكريم من غير تكرار.

والثالثة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن خنته في أهله بعد إكرامه وحفاوته بي فأكون ظالماً له، والظالم لا يفلح ولا يفوز بخير. وتأتي أيضاً كموعظة له ولها بأن هذا الذي تطلبين هو نوع من أنواع وآحاد الظلم، والظالم لا يوفقه الله تعالى، ولا يجعل له فلاحاً ولا فوزاً، وبدأ التعليل بإن ﴿إِنَّهُۥ﴾ لتفيد التأكيد على أن الظالم لا يتحقق له الفلاح. فقرر البيان الكريم عفاف يوسف بالرغم من كونه شاب، وتحت إمرتها، واتخذت جميع الأسباب من أمان المكان، والخلوة، وهي الطالبة، وهو المطلوب، وهو شاب في كمال قوته، وهي ذات السيادة، والأمر، وهو المأمور، وما قد يتعرض له بسبب الامتناع، ومع ذلك استعاذ بالله تعالى وامتنع. ليعطي غيره الدروس والعبر، بأنه إذا كانت هذه حال يوسف عليه السلام فكيف بمن يطلب ذلك، ويسعى إليه.

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى (١١١/١٥) برقم (٢٤٧٥)

ويعطي النص الكريم قاعدة في معالجة النفس أمام مغريات الحياة، ومغالبة الشهوات، فيتذكر المؤمن عند مواجهته للشهوات والمغريات ما أنعم الله تعالى به عليه، وأن من واجبه شكرها، فيقول لنفسه ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فإنها قاعدة تربي في النفس القوة أمام شتات المغريات وأنواعها، ودرجاتها.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من الإرادة عند امرأة العزيز، وما كان من الامتناع عند يوسف عليه السلام، وما حصل له من العصمة، فبدأ الله تبارك وتعالى ببيان عزمها وإرادتها أولاً ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ ﴾ فبدأ النص الكريم بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ التي تبين قوة العزم، وقوة تمكن الْهَمَّ منها بيوسف عليه السلام ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ ﴾ والهم هو العزم على فعل ما تريده، قال ابن جرير، وابن الجوزي رحمهما الله تعالى: الهم بالشيء في كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يقع[١] مما يفيد أن إصرارها النفسي قد تمكن منها بقوة وشدة. فَهِمَّتها ارتقت إلى العزيمة والإصرار، بدلالة مراودتها ليوسف للفعل. وأما حال يوسف عليه السلام إزاء هذا الابتلاء ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ فكان من يوسف عليه السلام أن غَالَبَ نفسه لِمَا كان من اغرائها له، ومع هذا فَهِمَّتُه لم تتجاوز ما يَحْدُثُ في النفس، بدلالة هروبه منها إلى الباب عليه السلام. وكذلك قوله ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ فَلِمَا كان منها من قوة الإغراء حدثته نفسه، ولكن رأى برهان ربه ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ أي الحجة والدليل بتحريم الزنا، الذي منعه وأوقفه عن تحويل الهم بها إلى فعل، فتوقف حديث النفس عن ذلك إلى ما هو أقوى، وهو برهان الله تعالى، المتضمن للإيمان. لأن قوة الإيمان برهان على الطاعة، كما جاء في الحديث، من قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[٢] مما يفيد أن قوة الإيمان تمنع من الوقوع في المحرم. لأنه يظهر للمؤمن الخوف من الله تعالى عند تفكيره في الحرام، وعاقبة ذلك الأمر، والجنة والنار. فإما أن يغلب إيمانه ما هَمّ به، أو يغلبه ما هَمَّ به لضعف إيمانه، فيقع في الإثم الذي هَمَّ به، وذلك بارتفاع إيمانه عنه. وفي هذا دليل على أهمية الإيمان في التحرز والبعد عن الفواحش.

واحتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة، وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة، بقوله ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ﴾ وكل ذلك إخبار ببراءة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٨١/١٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٦/٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٠١/٢) برقم (٢٤٧٥)

ساحته من العزيمة على المعصية. وعلى هذا تكون همته مجرد خاطر، لم يخرج إلى العزم[1] وهناك فرق بين همتها التي تظافرت معها العزيمة والإرادة، وبين همة يوسف عليه السلام، الذي لم يتجاوز ما هم به حديث النفس، والذي أكدته الشواهد المصاحبة للبيان، من امتناعه، وهروبه إلى الباب، وقوله ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾

وهناك تأويل ثاني: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يقوم هذا التأويل على تقديم ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمعنى فلولا أن حصل له رؤية برهان ربه لحصل منه الهَمَّ بها، فالذي منعه من الْهَمِّ بها، هو رؤيته لبرهان ربه تبارك وتعالى. بما يفيد أنه لم يَهِمَّ بها بسبب رؤيته لبرهان ربه. وتم قياس ذلك على ما ورد في بعض أشعار العرب. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى بعد أن أورد الأقوال من شواهد الشعر، فقال: ومثل هذه الأشياء لا يحمل عليها كتاب الله النازل بالفصاحة، لأنها من ضرورات الشعراء[2] بمعنى أن التقديم والتأخير في ﴿لَوۡلَآ﴾ يكون من ضرورات الشعراء ليستقيم بناء البيت من الشعر، ولكن كتاب الله تعالى معجز من كل الوجوه، ومنها الفصاحة. وبالتالي فالقول الأول هو الصواب، والثاني: لتحصيل الفائدة من تفاوت الأفهام، والفائدة الثالثة: لمعرفة فائدة تحليل الأقوال، وبيان ما فيها من الثغرات.

ومن دقائق حال يوسف عليه السلام أن امتناعه عن مراودتها له، مع وجود حديث النفس عنده، أنه دليل على قوة الإيمان، وأنه غالب وقاوم نفسه عَمَّا انشغل الذهن به، وهو أصدق الإيمان، ويؤكد ذلك مدحه والثناء عليه من ربه تبارك وتعالى، بعكس لو لم يكن هناك هَمٌّ بها، فإن الامتناع يكون أمر طبيعي، وذلك لعدم وجود الدواعي، فلا يكن محل مدح وثناء، وهو ما يُقَوِّي ويرجح أن مقصد الآية الكريمة هو اثبات الهم بها، فامتنع لما رأى من برهان ربه تبارك وتعالى، وأياً كان نوع ذلك البرهان من الله تعالى. فقد ظهرت الطبيعة البشرية، مع العصمة من الوقوع في الإثم، للدلالة على قوة الإيمان.

وبين الله تعالى مزيد فضله على يوسف عليه السلام بقوله تبارك وتعالى ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فكما أرينا يوسف برهاننا الذي منعه من الهم بها، كذلك لنصرف ونُبعِد عنه السوء والفحشاء، فَيُبْعِدُ الله تعالى عنه مواقعة السوء، وهو القبيح عموماً، وكل ما يسوء الإنسان، والتي منها خيانة العزيز في زوجته، وكذلك يبعد عنه الفحشاء، وهو ما تناهى قبحه، والتي منها الزنا. وفي هذا تخصيص وتعميم، فعمم سبحانه وتعالى بأن صرف عن يوسف عليه السلام عموم القبيح، ليشمل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٧/٤)

(٢) المرجع السابق (١٥٨/٤-١٥٩)

قليله وكثيره، وخص ما تناهى قبحه، لأن إغراءه أعظم. وهما الصفتان اللتان يأمر بهما الشيطان عباد الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة البقرة ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ مما يبين أن من كان وليه الله تعالى فإنه يحفظه من مواقعة السوء والفحشاء، بالأسباب التي يقدرها الله تعالى للعبد. وقد أفاد صرف يوسف عليه السلام عن السوء والفحشاء، مع قوة أسباب وقوعه قُرْب معية الله تعالى وقوة إرادته، وعونه وحفظه للمحسنين. وكذلك لتكون هذه الطاعة منه لله تعالى بالامتناع عن الفاحشة باب ومفتاح له للخير، والتي منها تولي خزائن مصر، والتمكين في الأرض. ليدرك المؤمن من قصة يوسف أن التمكين والفضل من الله تعالى له مقدماته من الطاعة. ولذلك زَكَّاه اللهُ تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ إن يوسف واحد من عبادنا الذين أخلصوا لله تعالى. مما يفيد أهمية الإخلاص في عبادة الله عَزَّ وجل وطاعته، فإنها مفتاح للخير، وقوة لصرف السوء والفحشاء عن المخلصين لله تعالى.

ومن الفوائد فيما يتعلق بالسوء والفحشاء، أنها من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء خاص والسوء عام، إذ يشمل السوء كل ما يسوء الإنسان، وأما الفحشاء فهي: ما تناهى قبحه: كالقتل، وشرب الخمر، والزنا، والقذف. وفي هذا ما يفيد أن من أساليب الإيضاح عطف الخاص على العام، للبيان والتنبيه، ولفت الذهن للخاص، أو لنفي احتمال متوقع عند الْمُخَاطب، بأن العام قد لا يشمل الخاص. وفي ذكر الخاص بعد العام ما يفيد بيان العلاقة، مع تمييز الخاص بالاهتمام.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى كيفية الخروج من هذه الشائكة والمصيبة التي حلت بيوسف عليه السلام ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ فلما رأى يوسف برهان ربه تبارك وتعالى أخذ يجري نحو الباب هرباً منها، وأخذت هي تسابقه جرياً إلى الباب حتى تمنعه من الخروج ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ فتعاديا إلى الباب، فكل منهما يجري نحو الباب، لمراد في نفسه مضاد لمراد الآخر، فيوسف عليه السلام يعدو هارباً منها، ومراده الخلاص، وهي تعدي جرياً نحو الباب، فتسابقه الوصول إليه لتمنعه من الخروج إلا بعد أن يقضي حاجتها. كلمتان حوت الموقف والتصرف منهما بدقة عالية، وصَوَّرته بقوة البيان، وقلة الألفاظ، فكان بلاغاً معجزاً من كل وجه، من حيث قلة ألفاظه، ودقة تصوير الحدث بكماله، وحركته، حتى في طريقة العدو إلى الباب، بأنه كان سباقاً، فكل يعدو نحوه لمراده المضاد لمراد الآخر. وكذلك من حيث الأسلوب اللفظي، حتى أنه لم يقل تبارك وتعالى: واستبقا إلى الباب، بل ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ لأنه لم تكن المسافة هي الأولى ظهوراً في السباق، بل الباب هو الأظهر هدفاً وغاية لكل منهما، هروباً، ومنعاً من الهروب، فاستبقا الاثنان الباب ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ فَأُلْصِقَ الفعل بالفاعل ﴿ وَٱسْتَبَقَا ﴾ وتعاقب الفاعل للمفعول به ﴿ وَٱسْتَبَقَا

﴿ٱلْبَابَ﴾ لتستشف منه السرعة نحو الباب تسابقاً، والتي أعطت صورة أقصى ما يمكن من السرعة، مع كونه الباب الأول للمكان الذي هما فيه، لأن الباب جاء مفرداً، مما يعني أن خلفه أبواب، كما جاء ذكره بالجمع ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ مما يبين تظافر قمة بلاغة البيان، مع ودقة الألفاظ، ومدلول العبارات، ليعطي الصورة على أكمل مشهد، وفي أوجز سياق من تراكيب الكلام.

ثم يأتي بعد ذلك قمة الإعجاز البلاغي في تصوير ما حصل عند وصولها الباب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ فأدركته قبل أن يخرج من الباب، فأمسكت بثوبه من الخلف، ليدل على شدة قبضتها، مع شدة عزمها على تحقيق مرادها ومطمعها ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ فقطعت قميص يوسف من قوة شدها له، طمعاً في أن لا يخرج حتى يحقق مرادها. مما يبين افتتانها وولعها بيوسف، ومع كل هذا الولع به إلا أن إيمانه وتوفيق الله تعالى له، جعله يقاوم تلك الأسباب. ليكون مثالاً لكل مسلم في العفاف، وفي قوة مواجهة مغريات الحياة، والتي من أقواها أثراً إغراء النساء، كما قال صلى الله عليه وسلم (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[1] وقد دل انقطاع القميص من الخلف على قوتين متعاكستين ومتضادتين: قوة إصرار يوسف على الهروب، وانتزاع نفسه منها، وقوة مضادة ومعاكسة له، تجذبه وتمنعه من الخروج، مما أفاد شدة شَدِّهَا وقبضتها لقميص يوسف، حتى انقطع قميصه.

وعند الباب كانت المفاجأة التي كانت سبباً من الله تعالى في إنقاذ يوسف من الموقف ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ فتفاجأت بوجود سيدها، أي زوجها لدى الباب، مما يفيد أن يوسف عليه السلام قد تمكن من فتح الباب. فبادرت هي مباشرة بدفع التهمة عن نفسها، وألقتها على يوسف عليه السلام ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ومن قوة حيلتها أن استعطفت زوجها بانتسابها إليه ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ بل تمثلت بلفظ الأهل ﴿بِأَهْلِكَ﴾ الذي يستجمع جميع من ينتسبون إليه، وكذلك كَنَّت عن الزنا بالسوء، ليظهر حياؤها، مما يدل على ذكائها وسرعة بديهتها، خاصة مع ما في الموقف من أمرين متضادين، الأول: شغفها وولعها بيوسف، مع حال مراودتها الشديدة له عن نفسه، والثاني: المفاجأة بزوجها، الذي أدخل على قلبها الخوف والرعب، إلا أنها تمالكت نفسها، واستطاعت أن تخرج من تدافع هذين الأمرين في قلبها ووجدانها إلى أن تبرر الموقف بما يُظهر عفتها، وتلقي على يوسف عليه السلام

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح (٣٦١/٣) برقم (٥٠٩٧)

اللوم بإرادة السوء، والجرأة على ذلك، بل وبالحكم الذي يُجَرِّمه ويُوقعه في العذاب أو السجن. فبادرت زوجها بالحديث له ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ فبدأت بسؤال استنكاري وتقريري، فقررت بما مفاده أن يوسف عليه السلام أراد بها ما يسوء زوجها ويسوؤها، كناية عن الفاحشة، وسؤال استنكاري عن طلب الجزاء العقابي له. فما هو الجزاء الرادع الذي يستحقه يوسف؟ ثم استأنفت الكلام مباشرة بتقرير العقوبة التي يستحقها ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن الجزاء الذي يستحقه يوسف هو أن يُسجن، أو يُواجَه بالعذاب الشديد المؤلم. فقد تخلت عنه وعن مرادها منه بسرعة فائقة، بل وقلبت الأمر عليه فجعلته في كرب عظيم.

وهنا رَدَّ يوسف عليه السلام بالحقيقة ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فأوضح يوسف عليه السلام أن الطلب كان منها، مع إثبات حرصها بالمحاولة الجادة والتكرار ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ فدلالة المراودة تقتضي المعاودة والتكرار، مما يفيد أن مطالبتها له كان مما هو ممتنع عنه، فاقتضى الأمر منها تكرار المطالبة والمحاولة لِيغيّر رأيه، ومن فضل الله تعالى ونصره للمظلوم أن حكم حاكم من أهلها بالدليل الذي يوضح المحق من الكاذب، وهذا الشاهد قريب لها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فإن حصول الشهادة منه عليها كان أبلغ في تبرئة يوسف عليه السلام ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قد يكون خالها أو عمها أو غير ذلك، فهو واحد من جملة أهلها، فيظهر أنه دخل القصر مع عزيز مصر. وسماه بالشاهد، لأن حكمه قائم على الدليل، فتكون شهادته بمثابة من شاهد وعاين. فتمحورت الشهادة في البينة الدالة على الحقيقة، والكاشفة لها ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فإن كان التمزق أو شق القميص من الأمام فهي صادقة بمدافعتها عن نفسها، واستقباله هو لها ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وإن كان شق القميص وتمزقه من الخلف، فتكون كاذبة، ويوسف من الصادقين، لأن في شق القميص من الخلف دلالة على طلبها وسحبها له بقميصه من خلفه، وهو هارب ومدبر عنها. وهذا من جميل الاستدلال، وتوفيق الله تعالى في إظهار الحق.

ومن دقائق البيان أنه وصف يوسف في كلا الحالتين بصيغة التبعيض ﴿ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وكذلك ﴿ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي أنه واحد من جملة أولئك، وليس هو منفرد

بتلك الصفة، سواء كان كذباً أو صدقاً. بينما جاء وصف امرأة العزيز بتمام الصدق ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وبتمام الكذب ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فلعله باعتبارها الْمُدَّعِية على يوسف، فيتحقق فيها القطع بصدقها أو بكذبها، وقدمها على يوسف في كلا الوصفين، باعتبار مكانتها من عزيز مصر، وباعتبار مكانتها في القصر، ومكانتها منه، لأنه من أهلها، وكذلك لولايتها على يوسف عليه السلام.

ثم جاء الفحص والحكم بالنتيجة ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فلما رأى عزيز مصر أن الشق والتمزق في القميص كان من الخلف، حكم في القضية مباشرة ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فقد حكم ببراءة يوسف عليه السلام، من خلال إيقاع اللوم على زوجته، ووصف ما كان منها بالكيد، الذي هو المكر والحيلة، بقلب الشيء عن صورته الحقيقية إلى ما هو ضده، لأنها أظهرت خلاف الحقيقة، وقلبت الأمر على يوسف، بأنه هو الطالب منها، وليست هي الطالبة بأن يواقعها، وذلك لتبرئة ساحتها، وإيقاع يوسف عليه السلام في التهمة واللوم، فعمدت إلى إلباس الحقائق بغير لباسها عندما ابتدأت كلامها عند الباب ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقلبت الأمر على يوسف عليه السلام، من خلال تبرئة نفسها، وادعائها برغبتها في معاقبته، لتبين وتستدل على كرهها لهذا الفعل وليوسف ومراده. ثم أمعن زوجها في تحقيق الحكم المزيد من تغليظ الوصف وتأكيده ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فكيدكن أيها النساء متصف بالعظمة، ووصف هذا الكيد بأنه جزء، وبعض من كل الكيد الذي يحصل من جنس النسوة ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ فهو واحد من الكيد الذي يحصل من جنس النساء. ثم عَظَّم قوة كيدهن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا مبالغة في الذم لها، وتقرير أن الفعل والطلب منها، وتبرئة لساحة يوسف عليه السلام.

ثم من حكمة عزيز مصر أن طلب من يوسف ستر هذا الأمر ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ فاكتمه واستره، والكف والتوقف عن المزيد من الخوض في هذا الأمر، ثم توجه إلى زوجته بأن تتوب مما حصل منها ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ فاستغفري من ذنبك، المشتمل على أمرين: الأول: مراودة يوسف عن نفسه، والثاني: إلصاق التهمة بغير مستحقها. مما يدل على حكمته وعقله في معالجة الأمر، وإحقاق الحق، والحكم بالعدل، وإقامة الشهادة والدليل والبرهان. وعدم تسرعه، بقبول مقولة زوجته دون تثبت. بل حكم عليها بالخطأ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ وجعلها واحدة من مجموع الخاطئين،

وفي هذا تهوين عليها، فلم يجمع عليها مع الحكم إفرادها بالخطأ، بل إنها واحدة من زمرة الخاطئين. ودَلَّ قوله ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ على الإيمان، وأن هذا محرم، يستوجب الاستغفار والتوبة. وأنهم يمثلون مجتمعاً يؤمن بالله تعالى، ويعضده ما هو قادم من كلام النسوة على ما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

ثم يخبر الله تعالى عن حديث نسوة في المدينة، قد تكلمن عما حصل من امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام، مما يدل على أن الأمر قد تسرب، وخرج خارج القصر ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فتوضح الآية الكريمة أن الأمر أصبح شائعاً عند نسوة في مدينتهم، فربما تكلمت امرأة العزيز عند بعض صديقاتها فتسرب الأمر بينهن، وكان تسربه في عدد قليل منهن، لأن لفظ ﴿نِسْوَةٌ﴾ يدل على جمع القلة، ذكر ابن عباس رضي الله عنهما: أن عددهن أربع، وقال مقاتل رحمه الله تعالى: أن عددهن خمس. والفتى بمعنى العبد[1] وأما العزيز فإنه الملك في كلام العرب[2]

وبفضل الله تعالى أن الذي تسرب إليهن كان على وجه الحقيقة، بأن يوسف بريء، وأن الذي حصل من المراودة كان من امرأة العزيز، وأنه لم يتجاوز الأمر ويتعدى المراودة، وأسموه فتاها، باعتبار أن الفتى هو الشاب، ونسبوه لها باعتبار أنه في قصرها، أي غلامها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٥/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٥/١٣)

﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فهي التي تراوده عن نفسه ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وهذه علة المراودة، أنها بسبب ولعها بحب يوسف عليه الصلاة والسلام، حتى أنه بلغ هذا الحب غلاف وسويداء قلبها، أي تمكن منها، فغلبها، حتى لصق حبها له بقلبها. وقد حكم النساء عليها بالخطيئة ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فبالرغم من تحليلهن وتفسيرهن لعلة مراودتها ليوسف عليه السلام، بأن حبها له قد بلغ شغاف قلبها إلا أنهن لم يعذرنها في ذلك، بل حَكَمْنَ عليها بالضلال المخالف للرشد والصواب، وأَكَّدْنَ بأن ضلالها المخالف للرشد والصواب أنه بائن واضح، لا يلتبس على أحد، ولا يتردد في الحكم عليه بالضلال أحد.

فلما نما إلى علم امرأة العزيز ما قاله النسوة، أجرت لهن أمراً، تختبرهن به، لتثبت به قوة دواعي ما حصل منها، وأنه ليس بالأمر السهل والهين أمام جمال يوسف عليه السلام، مما يدل على دهائها ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فلما علمت بما نما إلى علمها مما قاله النسوة، واستثارها قولهن، حتى ولكأنها سمعت منهن القول مباشرة، وذلك من كثرة تداولهن لما حصل من مراودتها ليوسف عليه السلام، لأن التقرير بأن امرأة العزيز سمعت بمكرهن في قول لا يمكن أن يتجرأن بمواجهتها به، دل على أنه قد تواتر وكثر النقل لها بما قالوا: فجاء دقة البيان بما يناسب واقع الحال، فظهر الإعجاز البياني في تصوير الموقف وكأنك تراه وتشاهده. وتم تسمية ما تداوله النسوة بالمكر ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ أي قولهن. وفي تسمية قولهن بالمكر دليل على أنه متضمن لصرفها عن مراودتها ليوسف، وفي تخصيص المكر بأنه سماع ﴿سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ دليل على أن المكر كان لفظاً وليس فعلاً، لأن السمع يقابل اللفظ، وهو قولهن ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ والمكر كما قال الأصفهاني رحمه الله تعالى: هو صرف الغير عما يريده ويقصده بحيلة[1] فكأن هذا القول والحكم منهن هو لصرف امرأة العزيز عما تريده، وذلك بحيلة تقبيح مراودتها وإرادتها، حتى أنهم وصفوا فعلها بالضلال المبين ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وهذا أيضاً من أدق دقائق البيان في وصفه. فهو ليس ضلالاً يكتنفه شيء من الإعذار لها، بل هو واضح بائن لا عذر لها فيه ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بل كان إجماعاً منهن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ فجميعنا يراها في مسلك الضلال الذي لا لبس فيه. ولم يختلف منهن ولا واحدة، لتلتمس لها شيئاً من العذر.

---

(١) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٧١)

وهذا دقة في الحكم، وإذا أُضيف للمعنى دلالة ﴿لَنَرَىٰهَا﴾ كانت مزيد بلاغة إعجاز في البيان. فالرؤية في هذا السياق تفيد إدراك الرائي من خلال الواقع إلى الجزم بالحكم على الأمر أو الفعل بما حكم به.

فلما علمت بهذا الأمر من نساء المدينة فيما قالوه عنها، قامت بعدة خطوات وإجراءات تُبَيِّن لهن فيها ما يجعلهن يلتمسن لها العذر. وأول هذه الإجراءات أنها ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ فبعثت لأولئك النسوة رسولاً يدعوهن إلى ضيافتها لهن في قصرها، ومن بلاغة البيان أنه لم يذكر علة الإرسال، لأن فيما بعدها كمال الإيضاح، وذلك بُعداً عن الحشو في الكلام، بذكر ما يستغني عنه البيان. وربما فرح النسوة بذلك، فلعلهن يحظين برؤية يوسف الذي فُتِنَت به امرأة العزيز، فيقضين تشوفهن ليوسف. والأمر الثاني: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ أي مجلساً متضمناً لما يتكئ عليه الجالس، وما يكون فيه من طعام البلد، وفيه دلالة على الاستعداد والاعداد، وتكريم الحضور. والأمر الثالث ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ فأعطت كل امرأة سكيناً، حتى تتمكن من قطع ما أمامها من الطعام أو الفاكهة. ويكمن خلف هذا الإعداد حيلة منها لهن، ومراداً آخر لهذه السكين، خاصة بإدخالها يوسف عليهن بعد أن أعطت كل واحدة منهن سكيناً. فكان الأمر الرابع هو: أن أمرت يوسف عليه السلام بالخروج عليهن، لتحصل المفاجأة أثناء انشغالهن بالطعام ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ وهنا لم تقل ليوسف عليه السلام: أُدخل عليهن، بل قالت ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾ ليدل على أنه كان في مخبأ، تستوثق به أنه موجود، فاخرج عليهن من مخبئك ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ فلما رأت النسوة يوسف عليه السلام، استعظموا جماله وهيأته وهيبته، وأعظمن شأنه، ثم من هول انبهارهن بجماله عليه السلام، انشغلن بالنظر إليه والافتتان به عن ما في أيديهن من السكاكين، حتى أن أيديهن التي كانت مشغولة بالسكاكين في تقطيع ما أمامهن من الطعام، تجاوزته إلى أيديهن ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ فحززن بالسكاكين أيديهن دون أن يشعرن بذلك، من هول ما رأين من حُسن يوسف. فعبر النسوة عن جمال يوسف بقولهن ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فبدأوا كلامهن بتنزيه الله تعالى ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله، تنزيهاً لله تعالى ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ فنفوا عنه صفة البشرية، لعظيم ما رأين من الجمال الذي لم يرين مثله في أحد من البشر. فمن عظمة هذه الصورة وعظيم جمالها تجاوزن بوصفه إلى ما غاب عنهن من الملائكة، فإن صورته ليست صورة من صور البشر التي يرونها، وهذا من باب المبالغة في وصف حسنه وجماله عليه السلام، فلم تكن فيه صورة جمالية كصور بعض البشر، فإذاً ما هو إلا ملك ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ فما هو إلا ملك من الملائكة الكرام. فنسبوا جماله إلى جمال الملائكة، بالرغم من أن النسوة لم يروا الملائكة، ولكن من باب تعظيم جماله.

فوصفوه بالذي لم تدركه عقولهم، فاستعظموا صور الملائكة، فشبهوه بها. كما وصفن الملك بالكريم ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بأنه مكرم من الله تعالى، بما أكرمه. وقولهن هذا يدل على إيمانهن بالله تعالى، وإجلالهن له عَزَّ وجل، وإيمانهن كذلك بالملائكة والغيب، مما يدل على أنها بيئة أو مجتمع مؤمن. خاصة إذا أضفنا لذلك ما سبق من قول العزيز لامرأته عند الباب ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ والاستغفار يدل على الاعتراف بالذنب، والإيمان بالله تعالى، وأن هناك حساب وجزاء.

وهذا يدل على عظيم جمال يوسف عليه السلام، وعظمة الخالق تبارك وتعالى، الذي أعطى يوسف عليه السلام شطر الحسن، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عُرِج به فقال (... فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، إذا هو قد أُعطِيَ شطر الْحُسْنِ)[1] ويدل على تأثر الإنسان بالجمال، مما يوجب الانتباه والتوقي والحذر من أن يفتن المؤمن غيره، أو أن يُفْتَن من غيره، بالأسباب التي قد تؤدي إلى ذلك. وفيه كذلك أن الدهشة تذهب بعقل الإنسان، حتى أن النسوة حززن أيديهن بالسكاكين، وفيه كذلك قوة دهاء امرأة العزيز، وفيه كذلك أن يوسف عليه السلام كان يعمل أو يتواجد في القصر، ولذلك قالت ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّ﴾

ومن بديع السياق في البيان: التدرج بما يتوافق مع مواطن التأثر والتأثير، فبدأ الوصف لحالهن بما حدث في قلوبهن أولاً، وذلك باعتبار أن جميع الجوارح تبعاً للقلب ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ استعظمنه في نفوسهن، لِمَا فاق فيه من الجمال والحسن الذي لا نظير له في جنس البشر، وفي ذلك بيان عظمة الله تعالى في تدبيره وخلقه لما خلق ولما سيخلق، ثم انتقل البيان إلى ما حدث من الأفعال التي هي وليدة ما استقر في القلب ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ فانشغال قلوبهن بجمال يوسف عليه السلام أذهلهن، فتاهت أبصارهن عن أيديهن، فقطعن أيديهن دون إحساس منهن بذلك، فكانت الحواس الأخرى في حكم المعطلة لانبهارهن الذي لم يتمكن ويمتلكن فيه أنفسهن، ثم انتقل البيان إلى القول والتعبير عما جاش في الصدور ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ ليدل هذا الترتيب البياني، ومضمونه العظيم، على براعة ودقة تصوير الموقف، وكذلك على أن أول ما تنقله الحواس يكون للقلب، الذي يصدر منه ما يؤثر على السلوك، وما يؤثر على البوح بالمشاعر. مما يؤكد أن هذا البيان، وهذا التصوير، والترتيب هو بيان إعجاز، فإنه كلام في غاية

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (١/١٤٥-١٤٦) برقم (١٦٢)

الإعجاز من عند الله تعالى، فلا يمكن لبشر أن تكون لديه هذه الدقة البيانية العظيمة. فسبحان من أعجز كلامه عباده، وجعله معجزة وآية وحجة على عباده.

ثم بعد أن أثبتت زوجة عزيز مصر للنسوة قوة جمال يوسف عليه السلام، وانبهارهن به، وافتتانهن بجماله عليه السلام، بقلوبهن، وعقولهن، وفعلهن، وتقريرهن بالقول ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بادرتهن بعد ذلك بما يُظهر العذر لنفسها عما حدث منها، ومما تحدثن فيه عنها باللوم ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ فقالت لهن ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فاستخدمت الإشارة إليه ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي: فهذا يوسف ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ وموجهة الخطاب لهن بضمير نون النسوة ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فهذا هو مكان اللوم ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ فهذا الذي بهركن بحسنه حتى قطعتن أيديكن، وقلتم فيه قولكم بأنه ملك من فرط جماله، لتقررهم بحقيقته، وحقيقة حبها له، وشغف فؤادها به، وكأن لسان حالها يقول: فهل يستحق أن أراوده عن نفسه وهو بهذه الصورة الخلقية الفاتنة أو لا يستحق مني ذلك؟ وهل تعذروني فيما حدث مني أو لا تعذروني؟

وبعد أن أقرتهن بما كان منهن تجاه جمال يوسف، أقرت لهن بمراودتها له ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ فبعد أن أوقعتهن بالدليل القاطع في إثبات انبهارهن بجمال يوسف عليه السلام. اعترفت وأثبتت مراودتها له عن نفسه، وبدأت في إثبات ما كان منها بحرف التحقيق ﴿وَلَقَدْ﴾ لتؤكد به صحة مراودتها له. وأنها هي التي أرادته، وليس هو الذي أرادها، بل إنه امتنع واستعف وتعفف عليه السلام، ومستخدمة في تبرئته لفظ الاعتصام، لوصف حاله ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ ولم تقل اعتصم، لتفيد المبالغة في قوة امتناعه عنها. فبرأت ساحة يوسف عليه السلام، وهذا نصر من الله تعالى لساحة يوسف عليه السلام.

ثم تُثبت لهن عزمها على ما أرادت من يوسف عليه السلام، لِتُظهر مكانتها وقوتها وقدرتها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فإن لم يفعل ما أريده منه ليكون له السجن عقاباً، ويتحقق فيه مع الحبس الذلة والاحتقار والاستصغار، فيكون من جملة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فينتقل من هيبة القصر ومكانته ومنزلته التي هو فيها إلى السجن، وما فيه من الإذلال له. ويظهر أن يوسف عليه السلام كان يسمع ذلك، حتى يكون تهديدها له نوع من الإرهاب والوعيد بإمضائه، والامتثال لها. وفي كلامها الجريء أمام تلك النسوة، ما يدل على قربهن منها، من حيث الصداقة والألفة فيما بينهن.

وقال يوسف عند سماعه لكلامها وتهديدها له ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ مما يبين أن الذي كان يمنعه ويعصمه منها هو خوفه من الله تعالى، وإجلاله لِمَا حَرَّمَهُ الله عَزَّ وجل من فاحشة الزنا. وبدأ يوسف عليه الصلاة والسلام بعملية المقارنة بين السجن وبين ما يدعونه إليه فيما يحبه من طاعة الله عَزَّ وجل، ومخاطباً ربه تبارك وتعالى بتلك المقارنة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ فإن كان الأمر متوقف يا الله على فعل الفاحشة أو السجن، فإن الأحب إليَّ هو السجن الذي اختاره اعتصاماً عن فعل ما حَرَّمْتَهُ يا الله. ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وهنا مقارنة بين السجن وما فيه من العزلة والغم والألم والضيق والذل والكرب، وبين ما يدعونه إليه من الحرية والاستمتاع، ليبين بفعله عليه السلام أن الذين آمنوا أشد حباً لله تعالى، فكل محبوب دونه لا يعلو على حب الله تعالى. إنه درس لكل مؤمن في مواجهته للمحرمات، سواء المحرمات من الدماء، أو محرمات الأموال، أو محرمات الأعراض، أو محرمات ما يفسد العقول، أو جميع صنوف المحرمات. وقد أسند يوسف الدعوة إليهن جميعاً ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ قال الإمام الشوكاني: لأن النسوة رَغبنَهُ في مطاوعتها، وخَوَّفنَهُ من مخالفتها، ثم جرى على هذا نسبة الكيد لهن جميعاً ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾[1] وقد يكون ترغيب النساء له في امرأة العزيز هو استدراج له منهن، حتى يحصلن منه على مثل ذلك، لافتتانهن بجماله عليه الصلاة والسلام. أو ربما حصل منهن شيء من المراودة، ولذلك أشار إليهن جميعاً مرتين: من حيث دعوتهن له ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ ومن حيث طلبه من الله تعالى أن يصرف عنه كيدهن ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾.

ثم التجأ يوسف عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى في صرف كيدهن عنه ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فإن لم تصرف عني يا الله كيد هؤلاء النسوة من المكر، والاستمالة والاستحثاث والتهديد، فإنه يحدث الميل مني ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فأميل إليهن إن لم تصرف عني كيدهن، لأن الإنسان لا يأمن على نفسه الفتنة. وفي هذا تبرؤ من الحول والقوة من أن تكون المدافعة والاعتصام من نفسه فقط، من دون معونة الله تعالى له، فإن يوسف عليه الصلاة والسلام مقهور منهن، ومحاط بكيدهن ومكرهن الظاهر، والذي قد يظهر في وقته، فإنه يخشى ويتخوف من ذلك، فإذا أصاب مرادهن يكون

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٣)

من زمرة الجاهلين ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فأدخل في زمرة من يعمل عمل الجهال والسفهاء من الناس، فألتمس يا الله عونك حتى لا أقع فيما لا أحبه من معصيتي لك يا الله. وفي قوله عليه الصلاة والسلام بصيغة الجمع لكيد النسوة ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ وكذلك صيغة الجمع عن الوقوع بهن ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ ما يدل على أن هناك رغبة منهن جميعاً ليوسف عليه الصلاة والسلام، وأنه رأى منهن ما يدل على ذلك.

فمن لطف الله تعالى بيوسف عليه الصلاة والسلام استجابته عَزَّ وجل لاستغاثته ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ فاستجاب تبارك وتعالى له، فعصمه من الوقوع في المعصية، ولذلك امتنع أشد الامتناع أمام المحاولات والاغراء المتكرر، والتهديد الظالم، فقد صرف الله تعالى عنه كيدهن بقوة معيته عَزَّ وجل ليوسف، فقد وهبه قوة الاعتصام عنهن مع قوة شبابه، وحال أمره أمام إصرار امرأة العزيز التي هي له كالسيدة الآمرة الناهية ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن الله تعالى هو السميع لكل أحد، ومنهم الذي يدعوه ويستنجد به، وعليم بأحوالهم، فقد سمع استغاثة يوسف عليه السلام، وعلم بحاله وحال امرأة العزيز، وكذلك حال النسوة، فحقق له العصمة من الوقوع في كيدهن. مما يفيد أن من يعتصم بالله تعالى، ويطيعه فإنه يستجيب له، ويعينه، ويسدده ويعصمه مما اعتصم منه.

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما كان من تدبير عزيز مصر مع أعوانه ومستشاريه فيما يرونه من أمر يوسف ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ثم ظهر لملك مصر، الذي هو عزيز مصر، وأعوانه من المستشارين، والخاصين بالرأي عنده، بعد أن تحققت براءة يوسف عليه السلام بالآيات التي هي الحجج والبراهين، بأن قميصه قُطع من دُبر، وقطع النسوة لأيدهن، واعتراف امرأة العزيز بما كان منها أمام النسوة، وتأكيد عزمها على تحقيق رغبتها بمعاودة ما أرادت من يوسف عليه السلام، وتهديده بالسجن، فبدا لهم

في الرأي أن يُسجن يوسف عليه الصلاة والسلام إلى وقت غير مقدر ابتداء، قال الماوردي: أنه زمن غير محدد، وأيده ابن الجوزي رحمهما الله تعالى، فقال: وهذا هو الصحيح، لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة، وإنما ذكر المفسرون قدر ما لبث في السجن[١] ولعل علة السجن مع براءته مبنية على صرف حديث الناس عن شأن امرأة العزيز، والتأكيد للناس بأن المتهم يوسف، وأنها بريئة مما نُسب لها، وقد يكون بمكيدة أخرى من امرأة العزيز، لأنها هددت يوسف عليه السلام بالسجن، فربما قالت عنه ما يستوجب سجنه، حتى ظهر لعزيز مصر ومستشاريه من الرأي والفكر بأن يسجنوه حتى حين، لوقت غير مقطوع بمدته. مما يدل على قوة المكر، ودهاء امرأة العزيز. فهذا ابتلاء عظيم آخر ليوسف عليه السلام، ولله تعالى الحكمة البالغة فيما يقضي به على العبد، فإنه سيكون وراء هذا الابتلاء وهذا المكر إعلان براءته، والتمكين له عليه السلام، وتقرير مراودتها، وحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ثم يذكر الله تعالى موقفاً ليوسف مع من دخل معه السجن، لتتبين أن الأسباب قد لا تكون ظاهرة، وقد تكون يسيرة، ولكن ينبثق منها الشيء العظيم ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ فقد دخل السجن فتيان مع يوسف عليه السلام، فدل لفظ ﴿ فَتَيَانِ ﴾ على أنهما مملوكين، لأن الفتى بلغتهم هو العبد[٢] وكان الفتيان فيما ذُكر غلامين من غلمان ملك مصر، أحدهما صاحب شرابه، والآخر صاحب طعامه[٣] وقد رأى كل واحد منهما رؤيا في منامه، وقص كل واحد منهما رؤياه على يوسف ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ فأحدهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً، أي عنباً، فسماه بما سيؤول إليه. فعن الضحاك رحمه الله تعالى، يقول: أعصر عنباً، وهو بلغة أهل عمان، يسمون العنب خمرا. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (إني أراني أعصر عنباً)[٤] وهذا يدل على أن السائل هو الساقي، فعصر العنب وأعطاه للملك ﴿ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ ورأى الفتى الآخر أنه يحمل الخبز على رأسه، فوقع الطير على الخبز، وأخذ يأكل منه. مما يدل على أنه خباز الملك، أو الذي يعتني بطعامه. ﴿ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فطلبا من يوسف عليه السلام أن يفسر لهما دلالة رؤياهما، وفي كونهما طلبا من يوسف ذلك، دليل على أنهما توسما في يوسف تأويل الرؤيا، أو أنه أخبرهما عن نفسه بذلك مسبقاً. مؤكدين أن سبب طلبهما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧١/٤)

(٢) المرجع السابق (١٦٥/٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥١/١٣)

(٤) المرجع السابق (١٥٤/١٣-١٥٥)

تفسير رؤياهما هو ما رأوا فيه من صفات الإحسان ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ مما يدل على أنهم عرفوا من خلال تعامله قبل السجن وأثناء السجن مسلك الإحسان في أقواله وأفعاله، وهذه شهادة منهما له عليه الصلاة والسلام.

فرد عليهما يوسف عليه السلام بما يؤكد لهما به ما تفضل الله تعالى به عليه من العلم والفضل ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ فبدأهما بما يعرفانه عنه أثناء تعامله معهم، فإنه لا يأتيكما طعام في السجن إلا أُنبئكم بمحتواه قبل أن يتم إحضاره إليكم، وهو التأويل له، قبل أن يأتيكما هذا الطعام، ويصل إليكما، فتجدانه كما أخبرتكم به. قال القرطبي رحمه الله وبعض أهل التفسير بهذا القول[١] وقد كان لعيسى عليه السلام شيء من ذلك، كما في سورة آل عمران ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ وهذا مما خص الله تعالى به يوسف من العلم بالتأويل. فأوضح لهما بتذكيره لهما ما كان من سابق فعله معهما في الإنباء ببعض ما غاب عنهما، مما يفيد أهمية بناء الثقة في المتلقي، وأنه لا يمنع أن يذكر الإنسان ما خصه الله تعالى به، من باب بناء ثقة الآخرين فيما يقوله ويبينه، فيحصل به الفهم والعلم عَمَّا يجهلون، وليس من باب التعالي والتعاظم عليهم، خاصة إذا كانوا يجهلون عنه خصائصه من العلم أو الخبرة والقدرة والفضل، ونحو ذلك، أو أن يُذَكِّرهُما بما غاب عنهما، بما يؤكد أهمية بناء ثقة المتلقي لتحصيل الفائدة والثمرة.

ثم أوضح لهم أن هذا العلم المخصوص هو من عند الله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ فذلك التأويل هو مما علمني ربي، وأفادت لفظة ﴿مِمَّا ﴾ التبعيض، أي: شيء مما علمني الله تعالى، وليس جميعه، فعلم الله تعالى عظيم وواسع عليَّ، وهذا شيء منه، فهو جزء من علم كثير آخر عَلَّمَه الله له تبارك وتعالى، ولم ينسب العلم لنفسه، بل نسبه لله تبارك وتعالى، لأنه لو لم يخصه الله تعالى بذلك العلم لَمَا حصل منه ذلك التأويل، وبهذا قطع عليهم السؤال عن ماهية وكيفية الحصول على هذا العلم. وفي هذا دعوة لهم للصلاح والاستقامة، حيث استغل هذا الأمر في المزيد من الإيضاح لهما، واستثمار وجودهما معه، واستماعهما إليه، ولم يستصغر شأنهما، بأن أحدهما ساقي، والآخر طاهي، أو طباخ، فبين لهم علة هذا العطاء، أنه من الله تعالى ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ إني تركت دين القوم الذين نشأت

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٩) الشوكاني، فتح القدير (٢٦/٤)

فيهم، فإنهم متصفون بالكفر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فإنهم كافرون بالله تعالى، غير مقرين به عَزَّ وجل، وكذلك كافرون ومنكرون باليوم الآخر، ومن البعث بعد الموت، والنشور والحساب والجزاء، والجنة والنار.

ثم انتقل لهم من بيان الترك إلى الأخذ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فانتقل إلى بيان المنهج الذي سار عليه، بأنه اتبع ملة آبائه، ثم سماهم بالترتيب التصاعدي، فأولهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم ابنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، ثم يعقوب ابن إسحاق الذي هو والد يوسف عليهم السلام، ثم بين لهم منهج أولئك الآباء ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ما ينبغي لنا، وما صح لنا ذلك، أن يكون منا الشرك بالله تعالى على أي وجه كان، لأن جملة ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أفادت تأكيد النفي المطلق، فنفى الشرك مطلقاً، والذي يثبت بمقتضاه تحقيق التوحيد الكامل. ثم نسب الهداية إلى فضل الله تعالى عليهم ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فأثبت أن نعمة الهداية فضل تفضل الله تعالى به علينا، بل ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً، فكذلك الناس جميعاً قد تفضل الله تعالى عليهم بما فطرهم عليه من التوحيد، وإرسال الرسل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون ما أنعم الله تعالى به عليهم من نعمة الفطرة وإرسال الرسل، فيوحدونه ويعبدونه. وفي هذا دعوة لهما لتوحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وعبادته سبحانه وتعالى، لتتحقق لهما الاستقامة، ويتفضل الله عليهما من فضله.

ومن جميل العرض من يوسف عليه السلام استخدام كلمة قوم ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ لتدل على الجماعة الكثيرة، وأنه أخذ بدين الآباء ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾

التي تفيد أنهم جزء من القوم، فلم يتأثروا بالكثرة، وليبين لهم أن الاعتماد الصحيح يكون على الحق، وإن كان أهله الأقل عدداً، فالكثرة ليست هي العمدة والمؤشر للصواب. وليفيد أن الكل إذا فسد فإنه لا يلزم أن يفسد الجزء، فالجزء الصالح لا يتضرر بهم، ويستطيع أن يقوم بالحق، وينفرد عن الباطل، وأفاد دقة تقابل النوعين، وتضادهما، وأعطى لهم بذلك التضاد المزيد من التأمل والتفكر فيما حقق كل نوع لأنفسهم في الدنيا والآخرة.

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ
إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ
٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ
فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢ ﴾

ثم يمتد الحديث مع السجينين إلى قضية الإيمان بالله رباً، ونبذ الشرك، والتخلص منه، مستثمراً انتظارهما لتأويل رؤياهما، فدعاهما إلى نصيبهما من الآخرة، فبدأ بسؤال يقرر به حقيقة الإيمان، وقد احتوى السؤال على أسلوب المقارنة الذي يُفضي إلى التفكير والتأمل والتعقل ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ فبدأ بالنداء ليسترعي به سمعهما، ويشد انتباههما إلى ما سيذكره لهما عن الإيمان، وناداهما بواقعهم الذي هم فيه معاً، من ملازمة السجن ومصاحبته ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ نداء يستثير الفكر والعاطفة، يا صاحبيَّ في السجن، وتأتي بمعنى: يا ساكني السجن، ويا أيها المتماثلين معي في السجن، لما في السجن من الضر والمعاناة المشتركة بينهم، وكذلك بمعنى ما يربطنا فيه من صلة الوحشة والتعب النفسي ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ أترون أن أرباباً متفرقة، يتم عبادتها من الناس، فيكون لكل واحد منهم رَبٌّ يدعوه من الأصنام، ويتخذه إلهاً، أفذلك خير أم أن إلهاً واحداً يعبدونه جميعاً هو الخير، وهو الله تعالى، المتفرد بذاته عمن سواه، والمتصف بقهر وإذلال كل شيء، بعزة سلطانه وعظمة جلاله، فلا يعجزه شيء أبداً. فإنه سؤال يستثير به الفكر عن تنوع معبوداتهم وتعددها، وفيما هم عليه من عبادة الأصنام، وتعدد المعبودات من الأوثان، التي يصنعونها بأيديهم من الأحجار والطين، فهل الخير في تعدد تلك المعبودات، أم أن الخير في عبادة الله الواحد القهار، الذي لا شريك له، فيجتمع الناس على عبادته وحده لا شريك له، وترك جميع ما يُعبد من غيره، وهو المتصف بما لم تتصف به تلك الأصنام المعبودة من دونه سبحانه وتعالى؟ فيقررهما ببطلان ما هم عليه، وصواب التوحيد الذي هو عليه. وهنا لم يتطرق إلى شتم وسب معبوداتهم، حتى لا يستثير الفرقة بينه وبينهم، وإنما لزم الحكمة، في طرح الفروق، للتأمل والتفكر، وتقرير الذهن بالحقيقة الموافقة للفطرة، والتي يلزمهم اتباعها والأخذ بها. فإن تجلية الجهل المركب يحتاج إلى إزالة المفهوم الخاطئ، ليحل محله المفهوم الصحيح. مما يبين أهمية الأسلوب والحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، كما يدل ذلك على انتشار الشرك، فإيمانهم مخلوط بالشرك.

ثم ينتقل بهم يوسف عليه السلام إلى حقيقة عبادتهم وما يعبدون من أصنام ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ فالمعبودات التي تعبدونها هي عبارة عن أسماء، سميتم بها تلك المعبودات، فأنتم الذين اخترتم لها الأسماء، فلو كانت تلك المعبودات حقيقة لاختارت أسماءها بنفسها، وليس العابد لها هو الذي يختاره لها ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ ليس عليها حجة من الله تعالى، لتثبت لكم ولنفسها الحق فيما تزعمون من العبادة ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ فإن الحكم في إبطالها أو إثباتها محصور فيما يحكم به لله تعالى، وبالتالي ليس هناك حكم لغير الله تعالى، وعلى هذا فإن كل ما أعطيتموه لتلك الأصنام من الحق هو مزعوم ومفترى، فليس له حقيقة أبداً، فإن الذي حصل ووقع منكم لتلك المعبودات من العبادة مخالف لأمر الله تعالى ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ فإن أمر الله عَزَّ وجل هو أن لا تعبدوا إلا إياه جَلَّ في علاه، فلا تصرفوا شيئاً من العبادة إلا له جَلَّ جلاله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ فهذا هو الدين العدل المستقيم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس واقعون في الشرك، لأن إيمانهم بالله تعالى مصروف لما يعبدون من دونه، فلا يعلمون حقيقة ما وقعوا فيه، وما يترتب عليه من العقاب، وما للطائعين من الثواب، فواجبكم بعد علمكم أن توحدوا الله تعالى وتعبدوه، ولا تكونوا مثل الكثرة الجاهلة. وفيه تحذير وتحفيز لهم بأن لا يغتروا بكثرة الشرك والمشركين.

ثم انتقل بهما بعد دعوتهما للإيمان، إلى تأويل رؤياهما ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ وابتدأ يوسف عليه السلام كلامه بمثل ما سبق من النداء ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ فهو نداء يستثير به انتباههم، وصحبتهما له في السجن، التي تستوجب الإخلاص لهما في النصح، وما يتوافقون فيه من معاناة السجن، بما يفيد أن للصحبة حقوقاً ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ فأضمر وأبهم اسمه، واكتفى بالإيماء له ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ وذلك لكراهة التصريح للخباز بأنه هو الذي سيصلب، وهذه من فطنته وحكمته عليه السلام ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ فأحدكم سيقوم بسقيا سيده خمراً، مما يعني أنه سيخرج من الحبس، فيكون هو الساقي، والآخر هو الخباز ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ ﴾ واكتفى هنا بقوله ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ ﴾ دون تحديده وتعيينه ﴿ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، وتأكل

الطير منه. ثم قطع الكلام في الرؤيا بالجزم أن التأويل متحقق فيكما لا محالة ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فانتهى موضوع الرؤيا بحتمية وقوع التأويل الذي سألتما عن تفسيره، وجملة ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ دلالة على حتمية وقوعه، بما يفيد أنه وحي من الله تعالى، إذ لا يكون الجزم بعلم ذلك إلا وحياً من الله تعالى، وهذا يتوافق ويتأكد به ما كان يخبرهما من طعام فيما سبق من الآيات الكريمة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن، ثم لا يكون، أو أنه غير كائن ثم يكون[١] وبالتالي يكون الظن هنا بمعنى العلم.

ثم لأنه جزم بتحقق تأويل الرؤيا فيهما، وجه طلباً للساقي ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ فقد تَعَشَّم يوسف عليه السلام في الذي سينجو ويسقي ربه خمرا، وهو ساقي الملك أن يخبر الملك عن شأنه ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ فقال يوسف عليه السلام للساقي، الذي علم بأنه سينجو: تكلم عند الملك في شأني، وما رأيته وعلمته عني، وما لحقني من الظلم، وذلك توقعاً من يوسف عليه السلام أن يعيد ملك مصر النظر في شأن إخراجه من السجن. ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف لربه. وقال مجاهد ومقاتل والزجاج رحمهم الله تعالى: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه[٢] ورجح الإمام ابن تيمية أن الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، ثم قال: وهذا هو الصواب[٣] ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى فيما سيأتي عن أمر الساقي ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فالذي تَذَكَّر بعد نسيانه هو الساقي. مما يدل على أن الأولى بالصواب: أن الشيطان أنسى الساقي.

ثم يخبر الله تعالى بالزمن الذي قضاه يوسف في السجن (فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) فلبث يوسف عليه السلام سبع سنين. قال أبو قتادة ومجاهد رحمهم الله تعالى: أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع[٤]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧١/١٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٤/٤)

(٣) ابن تيمية، الفتاوى (١١٢/١٥)

(٤) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٦/١٣)

وقيل: هو ما دون العشرة[١] وبالتالي فإن السبع سنين هي من عموم دلالة البضع. وهذا ابتلاء عظيم، بما يفيد أن الأنبياء والمرسلين لم يسلموا من الابتلاء، ولكن جاء بعده فرج ومنزلة عظيمة، وفرج عظيم.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى رؤيا رآها ملك مصر، والتي قَدَّر الله تعالى أن تكون سبباً لخروج يوسف من السجن، واعتراف امرأة العزيز بما كان منها ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ فقال ملك مصر الذي كان العزيز وزيراً له، أنه رأى في منامه رؤيا، وعبر عنها بصيغة المضارع ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾ ولم يذكرها بصيغة الماضي، حيث انتهى من الرؤيا، وهذا من باب استحضار معالم الرؤيا، وكأنها حادثة له أثناء عرضها، واستوفى معها فعل الأكل ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ لاستكمال هيئة الحدث وصورته في الذهن ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ أي المستصحة جسمها ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ أي يأكلهن سبع مهازيل، شديدة الهزل. فأقبلت السبع العجاف على السبع السمان فأكلتهن. وهو شيء عجيب أن يأكل الهزيل القوي، فيستقوي الضعيف على القوي، أمر يثير التعجب. وتكملة الرؤيا هي ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وعطف السبع السنبلات على السبع بقرات، فسبع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٤)

سنبلات مخضرة يانعة نشطة، قد انعقد حبها، ومثلها في العدد سبع سنبلات يابسة، قد بلغت الحصاد، فيكون السبع السنبلات اليابسات قد التفت والتوت على السبع السنبلات النشطات المخضرة فغلبتها، وفي هذا بلاغة بيانية في عدم تكرار ما حصل من السبع السنبلات، اكتفاء بالمماثلة مع ما حصل من السبع البقرات في أكلها.

ثم خاطب من عنده من الأعيان، يطلب منهم تفسيراً لهذه الرؤيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ فبدأ بياء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ لشد الانتباه نحو ما سيعرضه عليهم، وبيان أهمية ما سيقوله لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ يا أيها الأشراف والأعيان ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي أخبروني بدلالة معاني هذه الرؤيا، إلى أي شيء تشير ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ إن كنتم تعلمون تعبير الرؤيا، فماذا ستؤول إليه هذه الرؤيا في واقع الحياة. بما يفيد إن الخطاب عام لهم، وعلى الذي يعرف تفسيرها يخبرنا بها. وبالتالي فمن لا يعرف تأويلها لا يتكلم فيها لمجرد الكلام والتخمين من غير علم.

ورد جلساء الملك بجوابين: الأول: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾ أي لا تشغل اهتمامك بها، فإنها مجموعة أخلاط مما يراه النائم في نومه، فهي رؤى لا حقيقة لها، فهي من قبيل حديث النفس، مما يدل على أنهم لم يروا فيها ما يمكن لهم أن يؤولوه ويفسروه، وأنها مجموعة رؤى مختلطة، لا يتبين منها ما يمكن تفسيره. والثاني: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ومع هذا فلسنا بالعالمين بتأويل وتفسير الأحلام عموماً. ولعل في ذلك حكمة أرادها الله تعالى. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ فهذا الساقي الذي نجا من القتل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ وأوصاه يوسف عليه السلام بأن يذكر حاله وقضيته عند الملك، فأنساه الشيطان ذلك، ولكنه تذكر بعد حين ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ فعندما عرض الملك رؤياه، وعجز الجلساء عن التأويل، تذكر الساقي يوسف عليه السلام وقدرته على تأويل الرؤيا، وكان هذا التذكر ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين، أي بعد سنين عديدة، وهذا دليل على أنه هو المقصود الأول بالنسيان، من أن يذكر يوسف عند ربه، كما أوصاه يوسف عليه السلام.

وقال الله تعالى عن ساقي الملك ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ أنا أخبركم بتفسير هذه الرؤيا، فأذنوا لي. فبدأ كلامه بضمير المتكلم ﴿أَنَا۠﴾ وفي هذا شد الانتباه للملك وللحضور، بعد أن عجزوا عن تأويله، مع تشوق وتشوف الملك إلى تعبير رؤياه، وما دلت عليه، وألحق كلامه بقوله ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾

أي: فأذنوا لي بالذهاب، أي أستأذن منكم بأن توافقوا على ذهابي لمن يفسر هذه الرؤيا، وقد أثبت تأكده ممن يجيد تفسيرها وتأويلها بدقة، حيث قال ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ فجزم بمعرفته وتحققه من تحصيل تأويلها. ونسب في مطلع حديثه، أنه هو الذي سوف يفسرها ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ لشد الانتباه، وتأكيد تحصيل التأويل لها.

ثم ذهب ساقي الملك إلى يوسف، وبدأ خطابه بالثناء عليه ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بدأ ساقي الملك في مخاطبة يوسف عليه السلام بمناداته ﴿يُوسُفُ﴾ ثم تلى ذلك بقوله ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ فشد انتباهه بحرف التنبيه والاحترام ﴿أَيُّهَا﴾ ثم تلاه بالمدح والثناء بما عرف عنه ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ وهي صفة مبالغة في الاتصاف بالصدق وتحريه، وعدم العدول عنه إلى الكذب، فالصدق هو موافقة الحقيقة قولاً وعملاً، فهي صفة جامعة لمن قوي في صدقه على الاستقامة، وأصبحت صفة له، وعنواناً ولقباً تحلى به، لإقامته الصدق في أقواله وأفعاله. مما يفيد أهمية إجلال وتوقير أصحاب المكانة بما يتناسب ومكانتهم ومنزلتهم. ثم قص الرؤيا كما وردت على لسان ملك مصر ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ مما يدل على أمانته في النقل، ودقة نقله. ثم أخبر الساقي يوسف عليه السلام بأنه يريد أن يرجع من حيث أتى بتأويل الرؤيا ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فبدأ الطلب بالرجاء والتمني ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ أظفر بتأويلها، وأُثبت لهم بمعرفتي بمن يفسر الرؤيا على حقيقتها. وعبر عن الملك ومن معه بالناس، لأنهم في مجموعهم يمثلون غيرهم من أهل مصر، فذلك أعم، وكذلك تكثير لهم، وأنهم ينتظرون منه التأويل الذي عجزوا عن معرفته، فلعلهم يعلمون تأويل هذه الرؤيا، فيدركون بذلك فضل يوسف، وأنه أعلم منهم.

فعرف يوسف بأن هناك سبع سنين مخصبة، يمر بها الناس، فتستوفي الزروع محاصيلها في هذه السبع السنين، ثم تمر بعدها بهم سبع سنين جدب، لا إنبات فيها. فقال يوسف لساقي الملك بالتأويل مباشرة ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي تزرعون سبع سنين متتالية، متتابعة ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ فما تحصدونه كل سنة من السنوات المخصبة، المعطية لمحصولها، فاتركوه في سُنبله، فلا تفصلوه عنها، حتى لا يأكله السوس، إلا قليلاً مما تحتاجونه للأكل في كل سنة، فأرشدهم إلى أخذ

القليل وترك الكثير حتى يغطي الكثير المتبقي السنوات السبع العجاف التي ستتلو السبع المخصبة. ومن دقة التعبير للرؤيا أن حدد الاحتياج، بأنه المخصوص بالأكل ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ هذه السنين السبع المخصبة يأتي الجدب ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٌ﴾ تأتي سبع سنين شديدة الجدب، يصعب أمرها على الناس ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ فتأكل هذه السنين السبع المجدبة ما قدمتموه من الحبوب المتروكة في سنابلها من السنين المخصبة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ إلا القليل الذي تمنعونه من التقديم، فتحفظونه وتتركونه ادخاراً، كأن يكون بذوراً للزراعة، أو تحوطاً لأي أمر. ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ ثم يأتي بعد السنين السبع المجدبة عام يُمطر فيه الناس، فيُغاثون بهذا المطر الذي ستخصب فيه السنة بالخير، ويعصرون منه ما يُعصر من العنب والسمسم والزيتون. مما يبين لطف الله تعالى، وأخذه لعباده بالسنين لعلهم يرجعون إليه، ولا يستمر البلاء، بل يعقبه خير، وذلك من لطفه بعباده سبحانه وتعالى، بل ومن لطفه كذلك إحداث الرؤيا للملك دون غيره، حتى يحتاط للناس في تدبير شؤنهم، فخص الملك بالرؤيا دون غيره، لأنه المعني بإدارة موارد الناس، ولو رآها غيره كوزرائه أو أحد من الناس لما اهتم بها، وكذلك لتكون مفتاحاً وسبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن. مما يعطي أهمية الادخار، والتحوط، والتخطيط والتنظيم لأمر المعاش، لأنه من باب الأخذ بالأسباب. وأن ادخاره وتحوطه لعدم علمه بما هو قادم من أمور الحياة، وتدبير الله تعالى لها. فتعطي دروساً في التخطيط والاقتصاد، وإدارة الموارد.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى قصر ملك مصر ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ فلما أبلغ الساقي الملك ومن معه من مستشاريه وجلسائه بما قاله يوسف عليه السلام في تأويل رؤيا الملك، أمر بأن يأتوا به ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ فأمر الملك مَنْ عنده أن يأتو بيوسف عليه السلام، مما يدل على أن الملك أدرك علم وفضل يوسف من خلال تأويله لهذه الرؤيا التي استصعب تأويلها على الملك ومستشاريه، واشغلت باله وذهنه. فذهب مرسول الملك إلى يوسف ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي: فلما جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام، مخبراً له عن رغبة الملك في حضوره إليه، رَدَّ عليه يوسف ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ اذهب وعُد إلى سيدك الملك، وقل له ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ اسأل الملك عن قضية النسوة اللاتي اجتمعن عند امرأة العزيز، وقطعن أيديهن بدلاً من تقطيع ما كُنَّ يأكلن من الطعام؟ ما هي علة ذلك التقطيع؟ ليكشف للملك من خلال إعادة البحث في حادثة أولئك النسوة ما وقع له من الظلم، مردفاً الرسالة بما يفيد أنه كان منهن كيد عظيم ليوسف عليه السلام، وأن الله بذلك الكيد عليم، وأن علمه دقيق بأمرهن، لأن كلمة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ تفيد المبالغة في العلم ودقته لكل جزئياته، التي لا يغيب عنه منها شيء عَزَّ وجل. فلم يسارع يوسف عليه السلام للخروج مع رسول الملك، بل تأنى في ذلك، حتى يحقق ما يهدف إليه، من كشف أمر امرأة العزيز ومن معها من النساء، وما حصل له من الظلم والافتراء والحبس. فلم يحصر تفكيره في الخروج الذي يُمَكِّنَهُ من عرض قضيته على الملك مباشرة، وربما يُطلق سراحه مباشرة لعلمه بفضله من خلال تأويل الرؤيا، بل أراد أن يكشف الأمر للناس، وتحقيق براءته. ومن حكمة يوسف، وتوفيق الله تعالى له أن جعل السؤال عن النسوة ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ولم يفرد امرأة العزيز بالسؤال، بل جمعها ضمن النسوة، بالرغم من أن الحادثة في بيتها، وهي التي خططت ودبرت اللقاء، ولعل سبب ذلك هو كشف الشهود من النساء، والأدلة، وجميع ما يتعلق بالحادثة، وما يتصل بها من الحقائق عن المراودة، واعتراف امرأة العزيز للنسوة عن مراودتها ليوسف عليه السلام، وتهديده أمامهن بالسجن، وكذلك في عدم إفراد امرأة العزيز بذكرها، تأدباً وإكراماً، وحفظاً لحقوق زوجها الذي يعتبر سيده، والذي توخى فيه خيراً، ولأن النسوة شاهدات عليها له بما حصل منها.

وجملة ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ سؤال يعبر عن طلب التقصي عن أمرهن، لمعرفة ما كان وراء ذلك الشأن، فالسؤال عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن هو نقطة ومرتكز الانطلاقة في معرفة

الحقيقة بكاملها، لأن توجيه سؤال لامرأة العزيز، مع ذكائها ودهائها قد تتحايل على الحق وتطمسه، وتزيد من ظلمها ليوسف. مما يفيد أهمية الحكمة في التقاضي، وأهمية إدراك مرتكز الدلالة، وأن لا يُنْظَر للشيء من الزاوية التي قد تزيده سوءاً، بل ينظر إليه من الجهة التي ينكشف بها الحق، وتتحقق بها العدالة والهدف والغاية. فقد يكون كشف التهمة والظلم ليس من خلال الظالم مباشرة، بل من خلال ما أحاط بالموضوع من الأدلة.

ثم نوه يوسف عليه السلام بأن هناك مكيدة ﴿ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ فنوه عن المكيدة بأنها جماعية من النسوة، لأنهن زَيَّن وأمرن يوسف أن يستجيب لامرأة العزيز، وتحقيق مطلبها، ولعل في دعوتهن له بذلك، ما يمكنهن أيضاً من يوسف، خاصة وقد بلغ الانبهار بهن من جمال يوسف عليه السلام أن قَطَّعن أيديهن ذهولاً قلبياً وعقلياً، بل حتى حسياً، حيث امتد الأمر بهن أن قَطَّعْنَ أيديهن دون إحساس بذلك. فهناك حقيقة شاهدة لدى أولئك النسوة عن الحقيقة الظالمة التي طوتها وأخفتها امرأة العزيز. ومن جميل قول يوسف عليه السلام أنه لم يذكر المراودة، بل ذكر التقطيع، لأنه الأقوى أثراً، والأبلغ حجة، والذي من خلاله يأتي بما قبله من العلل والأسباب، وما بعده من السجن، وكذلك أن هذا من جميل منطقه وأدبه، وصبره وتوفيق الله تعالى له.

وبفضل الله تعالى ثم بناء على ذلك الرَّد من يوسف عليه السلام، استجاب الملك ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ مما يدل على أن الملك استدعى امرأة العزيز، واستدعى مَنْ كُنَّ معها في قصرها من النسوة، فخاطب الملك النسوة، ومعهن امرأة العزيز ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ فسؤال الملك لهن سؤال اتهام، واثق منه، وموجه إليهن مباشرة ﴿ **إِذْ** ﴾ حين حصل منكن قطع الأيدي بالسكاكين. فلم يقل الملك لهن: ما هو الحدث أو الأمر الذي أدى إلى تقطيعكن أيدكن، بل تجاوزه إلى تأكيد الفعل منهن، مما يبين شيوع الخبر وذيوعه أولاً، وأن الملك وثق في كلام يوسف ثانياً، ولحنكته وقوة سلطته وسلطانه، وحزمه في معالجة الأمر، ومباشرته له بنفسه، وكل ذلك بفضل الله تعالى، لإثبات براءة يوسف عليه الصلاة والسلام. ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ** ﴾ والخطب هو الأمر العظيم، فما أمركن وشأنكن في هذا الأمر العظيم من يوسف ﴿ **إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ وجمعهن في المراودة قياساً على جمع يوسف لهن في قطعهن أيديهن، وليعلم منهن التي وقعت منها المراودة تحديداً، وكذلك لتجمع أنواع المراودة، فما كان من امرأة العزيز، لفعل الفاحشة، وما كان منهن من ترغيب يوسف وتشجيعه على قضاء وطر امرأة العزيز. وربما علم الملك بأنه حصل منهن شيئاً من المراودة ليوسف عليه السلام عن نفسه.

فكان رَدُّ النسوة هو ما قاله تعالى في وصف رَدِّهن ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ فبدأن البيان بقولهن ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ معاذ الله، وتنزه الله تبارك وتعالى أن نذكره بغير ما فيه، أو بمعنى أن نكذب عليه ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ لم نعلم عليه من سوء البتة، فنفين حتى الجزء من السوء عن يوسف عليه السلام، لأن ﴿ مِن ﴾ تفيد التبعيض، أي ما علمنا عليه شيئاً أو بعضاً من السوء، فنفوا علمهن عن يوسف جميع مفردات السوء، وهي مبالغة في الوصف والتنزيه ليوسف عليه السلام، فشهدن بتبرئة يوسف عليه السلام من أن يكون لديه شيء من السوء الذي يدفعه لطلب الحرام. ومن فوائد البيان أنهن لم يذكرن شيئاً عن امرأة العزيز، واكتفين بتزكية يوسف، ونفي التهمة عن أنفسهن. فكانت إجابتهن مقتصرة على ما يخصهن، لأن كل واحدة منهن تتحدث عن نفسها، ولم يُطلب منهن الشهادة على امرأة العزيز. وهنا اعترفت امرأة العزيز مباشرة ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فتضمنت إجابتها ثلاثة أمور، الأول: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ فبعد تلك الاعترافات، والتزكية من مجموعة النساء، لم يكن أمامها إلا الاعتراف ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ فحددت التوقيت الذي لا مفر منه عن الحق ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ هذه اللحظة ﴿ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ ظهر وانكشف الحق، الذي لا مجال فيه للتواري عنه، فقد بانت حصة الحق من حصة الباطل، وانفردت، وانفرزت عنه وبانت ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ وهو الأمر الثاني الذي من كمال إجابتها ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أنا التي راودته عن نفسه، بما ينفي عن يوسف عليه السلام حدوث أي مراودة منه لها عليه الصلاة والسلام. والأمر الثالث: تزكيتها له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وأن يوسف واحد من مجموعة الصادقين، المتحلين بالصدق، فهو واحد من الذين لا يكذبون، في القول والفعل، فإن تصرفاته متوافقة مع الحقيقة، فلا يخالفها.

ثم تتجه امرأة العزيز بكلامها إلى مدح نفسها ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فأشارت إلى إقرارها باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ فإن ذلك الاعتراف ليعلم زوجي عزيز مصر: أني لم أخنه في غيبته بالوقوع في الفاحشة، فإني لم أصبها، غير أنه حصلت مني المراودة ليوسف، التي اعترفت بها. فنفت حصول الفاحشة منها بغيبة زوجها. مما يدل على ذكائها، وقوة فطنتها، بأن أحالت الموقف إلى الأقل شراً، فالمراودة أقل من شر الوقوع في فعل الفاحشة. ثم ألحقت ذلك بحكمة الله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يسدد فعل الخائنين، فلا يصوب الكيد ولا ييسره، ولا يرشد من خان أمانته، بل يفضحه في عاقبته. بما يفيد

أن الله تعالى بتوفيقه لم يسدد ما أردت من خيانة، فمنع يوسف أن يوافق على مطلبي، وحصحص الحق وأظهره، وأبطل كيدي، ولم يهديني لتحقيق كيدي. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي لا يثبته ويسدده، أو لا يهديهم في كيدهم لِيُوقِعُوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم[1] فالهداية متعلقة بالكيد ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لأن الكيد هو الأظهر في فعل الخائن، والمحور في التصرف للإيقاع بالآخر، فتكون نتيجته عدم التوفيق، مع تحصيل انكشاف الأمر. مما يوضح أن الكيد، وما يتبعه من أساليب المكر يؤول بها الله تعالى إلى الطريق الذي لا يتضرر به إلا الخائن لغيره، فهو درس عملي لكل مؤمن من أن يحذر الكيد أياً كان نوعه. كما أن في نسبة الهداية إلى الله تعالى، ما يدل على الإيمان بالله تعالى رباً، وأنه هو المتصرف والموفق، ولا يمنع أن يكون في حالها وحال قومها شيء من الشرك، أو المعاصي، لأن الشرك يجمع بين الاعتراف بالله تعالى، واتخاذ غير الله شريكاً لله تعالى. خاصة إذا جمعنا مع ذلك قول النسوة ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ففيه دلالة على الإيمان بالله عزَّ وجل، فقولهن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وكذلك قولهن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فيه دلالة على الإيمان.

ثم تدرجت امرأة العزيز إلى حقيقة النفس البشرية، لتتقوى بها على رفع الملامة عن ما كان منها، فبدأت بقضية حصول الخطأ من الإنسان، وأوقعته على نفسها ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ فلا أزكي نفسي تزكية تعصمني من الوقوع في الخطأ، فلا أُحيد بنفسي عن إمكانية وقوع الخطأ مني، فأُثْبِت العصمة لنفسي من الزلل. ولعله عُرف عنها الاستقامة، غير أن جمال يوسف أغراها، مع تزيين الشيطان الذي أوقعها فيما وقعت فيه من المراودة. وفي إثبات هذه الحقيقة ما يفيد أنه يجب على الإنسان التوقي والحذر، بالبعد عن المواطن التي تُوقع الإنسان في الإثم. فبعد أن خصت نفسها بحقيقة ذاتية، وهي ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ انتقلت لحقيقة عامة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ فأثبتت حقيقة الطبيعة البشرية ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ وهنا عممت ليشمل ذلك كل إنسان، حتى يعود غيرها إلى تلك الحقيقة، فلا يجردها من تلك الحقيقة، فيعتبرها معصومة، فالجميع تنتابه النفس الأمارة بالسوء، وفي هذا استلطاف لزوجها وللملك ولغيرهم من الناس، بأنه لا أحد يزكي نفسه، فإن النفس أمارة بالسوء، أي بما يسوء الإنسان عموماً في أي مجال، وعلى أي وجه، فليس لأحد أن يزكي نفسه. فلئن وقعت في هذا الأمر، فقد يقع غيري في مثله، أو في غيره من أنواع السوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ إلا من عصمه الله تعالى برحمته وتوفيقه، فاستثنت من ذلك فقط المسددين،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٤/٣)

الموفقين من الله تعالى. وأحوال النفس في القرآن الكريم ثلاثة: أمارة بالسوء ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ والثانية: في سورة القيامة: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ وهي التي تلوم صاحبها على الذنب. والثالثة في سورة الفجر: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ وهي التي اطمأنت بالله تعالى، ورضيت بما عندها، ولم تتوق للذنب تطلبه.

وقولها ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ يثبت أنه يكثر بينهم الإيمان بالله تعالى، فكلامها وكلام بعض قومها يَظْهَرُ منه الإيمان بالله تعالى. ولا يمنع أن يكونوا على شرك، لأن المشرك يؤمن بالله تعالى، غير أنه يتقرب إلى الله تعالى بواسطة تلك المعبودات من الأصنام. ثم بينت للجميع أن الله تعالى متصف بالمغفرة والرحمة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فأثبتت ربوبية الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ يغفر الذنوب ويسترها، فهو كثير المغفرة، بل وكثير الرحمة بعباده. مما يشير إلى التماس الستر عليها وعلى من كان معها، وأن يسامحوها ويسامحوا من كان معها.

وبعد أن تبين للملك براءة يوسف عليه السلام، وصدقه ونزاهته، وعلمه وفضله، وأمانته، وقوة اعتصامه عن الفاحشة، أراد أن يستأثر به، ويستخلصه لنفسه في إدارة اقتصاد الدولة ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ وفي قول الملك ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ ﴾ دليل على أنه كان خارج القصر أثناء حديث الملك مع النسوة، وأنه بعد الانتهاء من استجوابه للنساء في شأن يوسف عليه السلام، استدعاه، وقال لمن عنده ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي ﴾ وقد حكم الملك باستخلاص يوسف لنفسه قبل أن يتكلم مع يوسف عليه السلام، لتأثره بما اجتمع لديه عنه من الفضائل والخصائص العظيمة، وأنه شخصية نفيسة من كل وجه ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي ﴾ فأجعله خالصاً لي دون غيري، وهي درجة عالية من المبالغة في الاستخلاص، ليكون ذو حظوة خاصة، ومنزلة رفيعة عند الملك. وهذا من توفيق الله تعالى، الذي دَبَّر أمر يوسف عليه السلام، بما يصل به شيئاً فشيئاً إلى التمكين في الأرض، ويربيه بالشدائد، والابتلاء، ويخرجه من كل واحدة منها منتصراً أشد الانتصار، فأخرجه مِنْ بُغض إخوته، ومن غيابة الجب، وبيعاً له كسلعة متاع، ومراودة له من امرأة العزيز، وخروجاً من السجن، ليصطفيه ملك مصر، بل ويحرص عليه أشد الحرص، ويستأثر به خالصاً لنفسه دون غيره من حكومته.

ثم انتقل النص الشريف إلى بيان مكالمة الملك ليوسف عليه السلام مباشرة ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أي فلما كلم ملكُ مصر يوسفَ عليه السلام، فدل ذلك على أن يوسف حضر إلى القصر بعد أن قرر الملك

استخلاصه لنفسه. فقال الملك له ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ إنك من اليوم قد أَصْبَحَت في مكانة ومنزلة عالية، ورفيعة المكان والشأن، فإنك ﴿ مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ فأولها ﴿ مَكِينٌ ﴾ أي ذو مكانة ومنزلة، بما يفيد تمكنك مما تريد، وسنمكنك الشأن العظيم، والمهم في الأمر، وثانيها ﴿ أَمِينٞ ﴾ أي مؤتمن وموثوق به فيما يُوكل إليك من أمر وشأن. وهذا السياق أفاد أنه أمر مطلق وعام ﴿ مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ وهذه مكانة رفيعة، وثقة عظيمة من الملك ليوسف عليه السلام، مما يدل على أن يوسف عندما كلم الملك، تكلم معه بما حباه الله تعالى من العلم والفضل، الذي أدرك به الملك أنه أمام شخصية لا يعرف لها مثيل في جودة الرأي، وسلامة المنطق، وحُسن التعامل، وغزارة العلم وتأويل الأحاديث، وأمانة الأداء، وأمانة النفس، وقوة الرأي والفكر، والامتثال بمكارم الأخلاق. وفي هذا دلالة على عظيم ما أعطى الله تعالى يوسف من المميزات والخصائص العظيمة، التي جعلت ملك مصر يستأثر به، ويخصه دون غيره بالتمكين. مما يبين أهمية الاستئثار بالشخصيات المتميزة بالحكمة والتعقل، وتمكينها من الإنجاز، وتولي المناصب، وأهمية أن يكون الإنسان متصفاً بصفة الأمانة والقدرة، وأن يتعود على ممارستها في حياته باقتدار ونشاط، حتى تصبح جزءاً من شخصيته. وأن يكون محور النظر وموقعه في الاختيار والاستئثار هو القدرة والتمكن، والصدق والأمانة، وليس المنزلة، فيوسف عليه السلام بالنسبة للملك هو سجين، ليس من ذوي المكانة في قصره، فلم يمنعه ذلك من اصطفائه وتمكينه، فقيمة المرء بما حباه الله تعالى من مكارم الصفات والأخلاق.

وبعد أن سمع يوسف مقالة الملك، ومدحه وثناؤه ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ فطلب من الملك أن يوليه على خزائن الأرض المتعلقة بالأموال والتحصيل لموارد البلاد، والصرف منها، خاصة وأنه أمام سبع سنين من الخصب والخير، ثم تليها سبع سنين من القحط، وقلة الحبوب والموارد، فتحتاج إلى الكفاءة التي تستطيع إدارة الموارد بكفاءة عالية، ليتجنب بها مخاطر السبع العجاف، ومؤكداً يوسف عليه السلام للملك أنه عليها ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ حفيظ لخزائن الأرض، وحفيظ لما استودعه، وحفيظ على الموارد، وعلى الصرف منها، وعليم بالسنين العجاف، وعليم بالمقادير المستحقة، وبمقدار ما يصرف من سنوات الخصب، وما يُبقي للسنوات العجاف. وهذا من حرص يوسف عليه السلام على تجاوز دوائر هذه السنين، بما يحمي الناس من المجاعة، ويحقق لهم الخير والرخاء، مما يفيد أن في إبراز الخصائص والتعريف بها لمن يجهلها لا مذمة في ذلك، إذا كان يتحقق بذكرها الخير والنفع للغير. وتكون وسيلة ليوسف عليه السلام لنشر الدين الصحيح، والتفاف الناس حوله. وكذلك في مطلبه عليه السلام ما يخفف ويهون من خوف الملك وهمه مما هو قادم على بلاده من الأزمات. وفيها أهمية التخطيط، والتنظيم لأمور الموارد. وكلام يوسف ليس هو طلب للولاية، بل هو اختيار المكان الأنسب، لأن توليته بادر بها ملك مصر حين قال له ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا

﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وفي هذا تحقيق للرؤيا التي رآها يوسف عليه الصلاة والسلام، وقصها على أبيه كما جاء ذلك في أول السورة.

ثم يخبر الله تعالى أنه هو الذي مكن ليوسف في الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكما نجينا يوسف من إخوته، وأخرجناه من ظلمة الجب، وعطفنا قلب العزيز عليه، ثم شغف الملك بخصائصه، واصطفائه لنفسه، صيرناه إلى المنزلة الرفيعة، التي نُمَكِّنُهُ بها من أرض مصر ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فجعلناه متمكنا بالأمر والنهي في أرض مصر. وكلمة ﴿مَكَّنَّا﴾ تفيد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل ليوسف قدرة التصرف في أرض مصر، ويسر وسهل السُبُل للوصول إليها، فأصبح تصرفه كتصرف المالك لها، لا أحد ينازعه في الأمر، وأن أمره وقوله نافذ. ونسب عَزَّ وجل التمكين له ﴿مَكَّنَّا﴾ فمنحه سبحانه وتعالى التمكين الذي يعطي دلالة التثبيت من حيث الوصول لهذا التمكين، وهذا التصرف والأداء. مما يبين أن الله تعالى إذا مكَّن أحداً، فإنه يهيئ له الأسباب، فلا يستطيع أن يتغلب عليه أحد، لِيُبْطِلَ ما قضاه الله تعالى له من التمكين على أمر كبير أو صغير، وهو الأمر الاعتقادي الذي يولد الطمأنينة النفسية للمؤمن ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ فمن مزيد البسط في السلطة أن الله تعالى مكنه من أرض مصر، وكأنه الملك لها، فأصبح له كمال السلطة والقدرة بنفوذ أمره ونهيه، حتى أصبح الملك يصدر أوامره بناء على ما يراه يوسف عليه السلام، وأصبح أهل مصر يتصرفون وفق أمره ونهيه عليه الصلاة والسلام، فتحقق له كمال التمكين. بل قال الله تعالى ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي ينزل منها وفق ما يراه ويريده، فلا أحد يرده أو يرد أمره ونهيه، أو يثنيه عن مراده، فله كمال الإرادة، وكل هذا بتوفيق الله تعالى، لأنه هو الذي مكن يوسف بالأسباب التي أوصلته لزمام التمكين.

ثم قال تعالى ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي نختص بنعمتنا من النبوة والنجاة والتمكين من نختاره، ليتبين أن مشيئة الله تعالى فوق كل مشيئة، وأنه يختص من يشاء لما يشاء من النبوة، أو من الجاه، أو من العلم، أو من غير ذلك من فضله الواسع سبحانه وتعالى، ومع ذلك فإن الله تعالى لا يضيع عمل المؤمنين ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلن تذهب وتضيع أعمال المحسنين عند ربهم تبارك وتعالى، بل يحفظها لهم، ويوفيها لهم، ويجازيهم عليها، وفي هذا حث لكل مؤمن أن يكون من المحسنين، فيأخذ نصيبه، ويمتثل بما اتصف به يوسف عليه الصلاة والسلام.

ثم يخبر الله تعالى بكريم عطائه مفاضلة مع الآخرة ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فما نعطيه للذين آمنوا من الخير في الآخرة خير من هذا الأجر الذي يصيبهم في الدنيا، وهذا عام لجميع المؤمنين المتقين، وأما فيما يخص يوسف عليه السلام، فما نعطيه في الآخرة ليوسف، خير مما أعطيناه في الدنيا، فكل مؤمن إذا سلك سبيل التقوى، فجمع بين الإيمان والتقوى، فإن له عند الله تعالى في الآخرة خير مما حصل عليه في الدنيا. وهذا يبين للمؤمن أهمية التقوى التي يجتمع فيها الخوف من معصيته عَزَّ وجل، والامتناع عنها، وطلب مرضاته سبحانه وتعالى، والعمل بها.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ
ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ
لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ
بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ
هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا
نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

ينتقل السياق البياني وبأسلوب إعجازي إلى السنين العجاف، بعد أن تمكن يوسف من خزائن الأرض، فيأتي إليه إخوته من فلسطين، أرض كنعان إلى مصر، يطلبون الميرة، وهو الطعام الذي يُجمع للادِّخَار عموماً، أو يدَّخره الإنسان للسَّفَر ونحوه. وقد انتقل السياق إلى هذه المرحلة باختصار الزمن والحدث لما هو مهم من العبرة والموعظة، فيشعر الإنسان بسرعة انطواء الزمن، وتقلب الأحوال، فالضعيف أصبح قوياً، والقوي أصبح ضعيفاً، ليدرك الإنسان أن الحكم لله تعالى الذي يقلب الأحوال، وينصر من يشاء برحمته، ويعز من يشاء بحكمته ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ فقد دخل إخوة يوسف

عليه في المكان الذي يأخذون الميرة منه ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ مما يدل على أن يوسف عليه السلام كان يُدِير أمر الخزائن بنفسه، حيث دخلوا عليه، وكان هو الذي يأذن بما يشاء في خزائن الأرض التي مكَّنَه الله تعالى منها، وفي قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ دليل على أن إخوته جميعاً قد أتوا، وهم عشرة، وفي مجيئهم مجتمعين، دليل أن للعدد أثر في كمية الطعام الذين يأخذونه، وكذلك ليكثر عددهم، ويكونوا ركباً، يخافهم ويهابهم من تسول له نفسه أمر سوء، وفيه أهمية الأخذ بالأسباب، فإن يعقوب عليه السلام وهو نبي، يبعث بأبنائه لتحصيل الطعام.

وهنا حدث أمر الجهل وأمر المعرفة ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ فقد عرف يوسف أنهم إخوته، بالرغم من عدد السنين التي مرت بينهم، وهذا من توفيق الله تعالى له، وبما مكَّنَهُ من القدرة والفطانة والنباهة، بينما على كثرة عدد إخوته فإنه لم يتنبه له أحد منهم، مما يدل على أن فطنة الواحد إذا وفقه الله تعالى قد تفوق المجموعة من الرجال، كما يدل هذا الموقف على أنه كان صغيراً عندما ألقوه في غيابة الجب، فلما كبر تغيرت ملامحه عليهم، مما يُرَجِّح أنه كان في أقل ما يمكن أن يكون من سن الغلام، فيكون عمره آنذاك نحو سبع سنين، فتغيرت ملامحه عليهم، حيث فارقوه غلاماً صغيراً، وفي جملة ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ دلالة على أنه لم يدخلهم حتى شيء من التخمين أو التوجس والشك في كونه يوسف عليه الصلاة والسلام، فكان لهم نكرة غير معروف البتة، بينما دلت كلمة ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ على يقينه التام بأنهم إخوته، ولم يبلغه أدنى شك في ذلك. وأنه عرفهم من أول وهلة، وطلعة لهم عليه. فشتان بين الموقفين، مع كثرتهم وهم له منكرون، بينما عرفهم يوسف وهو فرد واحد، فقد عرفهم بلا ريب ولا شك أنهم إخوته. مما يعطي دلالة على أن العلم والمعرفة والموهوبة من الله تعالى تعطي رشاداً وقوة في البصر والبصيرة، وأن الأمور ليست بالكثرة، بل بقوة عطاء الله تعالى وهدايته وتوفيقه لمن يوفقه ويهديه.

ثم يتدرج الأمر والحدث إلى بيان غزارة حكمة يوسف عليه السلام ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي: فلما جهز رحالهم بما تحتاجه من الميرة، وما يحتاجونه في سفرهم. وجاء الوصف للعطا بكلمة التجهيز ﴿ جَهَّزَهُم ﴾ التي تدل على كمال التمام في تهيئة رواحلهم، فهي أبلغ بياناً في التعريف بفعل ما كان منه تجاه ما جاؤوا من أجله. ومن بلاغة البيان أيضاً وصف نوع ما جهزهم به بأبلغ وصف، وأقصر لفظ، وأكثره معناً، ليجمع جميع مفردات ما حملته رواحلهم من تمام التجهيز ﴿ بِجَهَازِهِمْ ﴾ ليشمل كل ما يتعلق بهم، فيما كان من مبتغاهم، مما يستحقون من الميرة، وكذلك ما يصلح به سفرهم من العتاد، فلم ينقص منه شيئاً. فبعد أن هيأ لهم ما يُصْلِحُهُم، واطمأنوا على ما جاؤوا من أجله تحدث إليهم ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ فهذا

المطلب يستوجب أن يكون قد نشأ بينهم حديثاً، عرف من خلاله يوسف بحالهم وحال أبيهم وأخيه الشقيق، فحصل تبعاً له هذا المطلب منه لهم، فمن خلال حديثهم معه، ومعرفته لبعض التفاصيل طلب منهم أن يأتوا بأخيهم الشقيق ليوسف عليه السلام، فيدل السياق على أنه تحدث إليهم حديثاً، ودار بينهم كلاماً حتى يكون لمطلبه وجاهة ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ فقد عَرَّف الإخوة يوسف عليه السلام بأخيه بنيامين، وعرف منهم حاله، فطلب منهم إحضاره معهم في المرة القادمة، ليكثر نصيبهم من الطعام، لافتاً انتباههم إلى وفائه لهم بالعطاء ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ وفي هذا حث لهم على العودة إليه، وعلى الاستكثار من الطعام بزيادة أخيهم معهم. ثم أكد ذلك لهم بسؤال تقريري، يقرر به وفاءه في العطاء، كما يوفي ضيوفه حق الضيافة ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ ألا ترون من شأني أَنِّي أُتم الكيل كاملاً، فلا أُنقص منه شيئاً، وكذلك ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ أي: أُحسن الوفادة بإكرام الأضياف، فأُحْسِنُ إنزالهم عندي بكريم الضيافة. فأنا خير من يهتم بمنزلة الأضياف وإكرامهم. وفي هذا السياق ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ تعميم إكرامه للأضياف جميعاً، سواء كان لإخوته أو لغيرهم، فلم يخصهم دون غيرهم، مما يدل على كرمه وأخلاقه الرفيعة، وحُسن تدبيره، كما يفيد أن للإنسان أن يبين محاسن نفسه إذا احتاج لذلك، من باب تحقيق الخير، وليس للتفاخر على غيره، فقد أثنى يوسف على نفسه بجميل فعاله ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ وجاءت جملة ﴿ أَلَا تَرَوْنَ ﴾ بما يفيد رؤية العين ورؤية البصيرة، فرؤية العين لأمرين: هما: وفاء الكيل كما ترون بأعينكم، والأمر الثاني: إكرام الأضياف، وإنزالهم أحسن المنازل من الضيافة. وأما رؤية البصيرة فإنها متعلقة بدلالة هذا الفعل، فعلى أي شيء يدل هذا الأمر، فهي متعلقة بالتفكير والاستنتاج.

ومن جميل تدبير يوسف عليه السلام أنه لم يخاطبهم في أخيهم إلا بعد أن ضيفهم، وبعد أن أعطاهم الميرة كاملة، حتى تطمئن نفوسهم، ويتحدثون إليه وهم في طمأنينة من أمرهم، وقد استوفوا وحققوا ما يريدون، مما يفيد أهمية قضاء حاجة المحتاج أولاً، ثم الحديث معه، بنصح وإرشاد، أو دلالة على شيء، أو نهياً عن أمر، لأن في ذلك تفريغاً لذهنه من هم الانشغال بما هو منشغل به، ولذلك عندما طلب حكيم ابن حزام رضي الله عنه من الغنائم، أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سأله، فأعطاه، ثم قدم له النصيحة عليه الصلاة والسلام بعد أن زاده وأعطاه وأرضاه، قال حكيم بن حزام رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي (يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع)[١]

فبعد ترغيب يوسف عليه السلام لإخوته بالعودة إليه بأخيهم، استخدم أسلوب التحذير ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ فاشترط شرطاً عليهم أن يأتوا بأخيهم ليستوفوا ما يستحقون من الميرة، وأما حال أنهم لم يأتوا به، فلن يبيع لهم طعاماً، مما يدل على معرفته باضطرارهم للعودة إليه من أجل أخذ حاجتهم منه ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ فلا تقربوني، بما يفيد: فلا أُقربكم مني وأنزلكم منزلة التكريم من العطاء والضيافة، فَتُحْرَموا مما تريدون. مما يبين حكمة يوسف عليه السلام في إدارة المواقف، ورغبته الشديدة في أخذ أخيه الشقيق أولاً، وترتيبه لإدارة مبتغاه بحكمة النبوة، التي تنتهي بها قصة يوسف عليه السلام، مما يعطي صورة وتخطيطاً لكيفية التخطيط والترتيب والتنظيم، واستثمار المواقف بأحسن الأساليب الملائمة والمتوافقة مع الموقف.

فأجاب إخوتُه طَلَبَه بأن وعدوه على الاجتهاد في ذلك ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ فسوف نجتهد في إقناع أبيه، ونحرص على طلبه منه، وإحضاره معنا، لأن المراودة تفيد تكرار المحاولة، والاجتهاد في الطلب. وفي قولهم هذا ﴿ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ دلالة على علمهم بأن أباهم لم يعد يثق بهم في شأن ابنه بنيامين، جراء ما حصل منهم مع يوسف عليه السلام، وأن إحضاره معهم ليس بالأمر السهل. ثم أكدوا حرصهم على المجيء به بقولهم ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ وإنا لمنفذون ما قلنا لك به، فلا نُبقي سبيلاً إلا نفعله للإتيان به معنا. وتكلموا له بضمير المتكلمين، الجمع ﴿ وَإِنَّا ﴾ بما يفيد حرصهم جميعاً على ذلك، واتفاقهم على الإتيان به، وأن ليس بينهم اختلاف على هذا الأمر. مما يدل على أنهم عصبة ويداً واحدة، مما يفيد أثر الالتفاف والاتحاد على قوة القرارات، سواء في صوابها أو خطئها.

ثم ينتقل السياق إلى بيان ما فعله يوسف عليه السلام مع إخوته بعد انقضاء حديثه معهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فأمر يوسف عليه السلام الخدم القائمين على تحميل الامتعة على المراكب أو الرواحل التي قَدِمَت لأجل الميرة أن

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٨٩-٢٩٠) برقم (٢٧٥٠) وللحديث فوائد عظيمة، في كتابي الفوائد السنية من السيرة النبوية، أوردته عند عنوان (تقسيم الغنائم، وإسلام هوازن) غزوة الطائف

يجعلوا بضاعة إخوته التي أتوا بها ثمناً لما يأخذون، أن يعيدوها في رحالهم ﴿ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ ﴾ اجعلوا بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام في رواحلهم، والبضاعة هي ما يُعَدُّ للتجارة، وغالباً ما تكون من السلع التي تكثر عندهم، ويحتاجونها في بلاد مصر، فتكون ثمناً لما سيأخذونه من مصر، فهي أخذ بضاعة، وإعطاء بضاعة بديلة عنها، فأمر يوسف عليه السلام أن يعيدوا بضاعة إخوته في رواحلهم ﴿ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ ﴾ والرحال هي كل ما يُعَدُّ للرحيل والترحيل، والتحميل والنقل. فأعاد عليهم بضاعتهم مع ما أعطاهم، فيكون قد أعطاهم من غير أن يحصل منهم على الثمن. وفي تسمية الخدم القائمين على عملية التحميل والتنزيل بالفتية، ما يدل على أنهم في مطلع شبابهم، فقد اختار السن المناسبة، القادرة على تَحَمُّل مشقة التنزيل والرفع على ظهور الرواحل، مما يعطي أهمية الاختيار المناسب للأعمال من الرجال. ومن دلالات ﴿ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ ﴾ أن فتية يوسف عليه السلام هم الذين يقومون بتجهيز رواحل طالبي الميرة من الأطعمة، وأن القادمين، يُعَامَلُون معاملة الأضياف من التكريم حتى في تجهيز رحالهم، وما تحتاجه من توثيق الأربطة بالحبال، والعلف، والتعليف ونحوه، ولو لم يكن الأمر كذلك، لعرف إخوة يوسف بمحتوى ما تحمله رواحلهم، واكتشفوا بضاعتهم. ولكنهم لم يعلموا بها إلا عند تنزيلهم لها في ديارهم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى سبب إعادة بضاعتهم التي هي ثمن ما أخذوا ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ فلعلهم عند عودتهم إلى مواطنهم ورؤيتهم لبضاعتهم التي هي ثمن لما أخذوا سبب لرجوعهم إليه، لأن في ذلك أخذ للميرة من غير ثمن، وهو الأمر الذي لا يقبله يعقوب عليه السلام، فَيُعِيد أولاده بأثمان تلك البضاعة. وهذا يدل على فطنة وذكاء يوسف عليه السلام، وما منحه الله تعالى له من الحكمة في التدبير، وفي سياسة الأمور بحكمة عالية. وقد اجتهد العلماء في التعريف بعلة إعادة البضاعة في تعاضد بين دلالاتها، فقال ابن عباس رضي الله عنه: تخوف يوسف عليه السلام أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى. فجعل دراهمهم في رحالهم. وقال الضحاك: أنه أراد أنهم إذا عرفوها، لم يَسْتَحِلُّوا إمساكها حتى يردوها. وقيل أنه استقبح أن يأخذ الثمن من أبيه وإخوته، مع حاجتهم إليه، فأراد أن يتسع بها والده وإخوته(١) ولعل يوسف عليه السلام أراد بها جميع تلك المقاصد التي ذكرها العلماء الأجلاء، ليحقق بها التوسعة على أبيه وإخوته، ولتكون سبباً في عودتهم إليه، من أجل إعادة الثمن، أو طمعاً في كرمه وحُسن معاملته، وكريم وفادته. ولكن النص الكريم بين الهدف والغاية من ذلك ﴿ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٩/٤)

بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بينت الهدف والغاية، وهو الرجوع إليه. ولا يمنع أن يجتمع معها غيرها من العلل، لتكون بقية العلل متفرعة أو فروع من الهدف والعلة الرئيسة.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان الحال عن عودة إخوة يوسف إلى ديارهم، ومبادرتهم لأبيهم بأصعب وأهم خبر، وهو أن الكيل ممتنع عليهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وذلك اعتماداً على ما قاله لهم يوسف عليه السلام ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فهذا شرط، ثم سألوا أباهم بما هو حَلٌّ لهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فابعث أخانا بنيامين معنا، ليقوم بتحصيل الكيل، ونحن رفقة معه، نحفظه من أن يصيبه سوء أو مكروه. وهذا الكلام قبل فتحهم لموجودات رحالهم، كما سيتبين فيما هو قادم. فأصبح ذهاب أخيهم معهم شرط لحل هذه المعضلة. وفيه دلالة على قوة الفكر في ترتيب الكلام، والتدرج في عرض المشكلة، وما يتبعها من الحلول، فبادروا بعرض المشكلة، ثم أسندوها بالحل المتوقف على ذهاب أخيهم معهم، ومن غزارة البيان الاستغناء عن زوائد الكلام، فَعُرِضت المشكلة في جملة مقتضبة مستوفية ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ وابتدأوا كلامهم بياء النداء ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ ليفيد شد الانتباه، وبيان أهمية ما سيعقبه من كلام. وأوردوا الحل بصيغة التمحور والارتكاز على ذهاب أخيهم معهم، فكأنه شرط لذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ فإن أرسلته معنا اكتلنا، وإن لم ترسله فإن الكيل ممتنع عنا. فكان في غاية البيان البلاغي مع قلة ألفاظه وقوة معناه.

فَرَدَّ عليهم يعقوب عليه السلام بما قاله الله تعالى عنه ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فبدأ يعقوب عليه الصلاة والسلام بتذكيرهم بما كان من ائتمانهم على يوسف، وربط ذلك بسؤال استنكاري ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فأفادهم بأن ائتمانه لهم على يوسف لم يتحقق به المطلوب، من الحفظ والرعاية، فكيف استأمنكم على أخيه. مما يفيد أنه لم ير من أبنائه طيلة تلك المدة الزمنية ما يجعله في ثقة منهم، فكيف استأمنكم واستوثق حفظكم له. ليبين يأسه من حفظهم له، وأنه غير واثق بما قالوا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ثم اتجه بهم إلى تقرير الاعتماد على الله تعالى في حفظه، وليس عليهم ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فإن الله تعالى هو خير من يحفظ، فإنه أحفظ منكم له، وهو خير من يُعتمد عليه لا عليكم، فحفظه سبحانه

وتعالى أعظم من حفظ الإخوة لأخيهم، وأعظم من حفظ الوالدين لولدهم، فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ تفيد التفضيل المطلق، وعلو القدرة المطلقة في الحفظ، فإذا انضمت إليها كلمة إليها الحفظ ﴿خَيْرٌ حَافِظًا﴾ أفادت أنه خير من يحفظ على الإطلاق، فليس هناك من هو أحفظ منه جَلَّ جلاله، مؤكداً ذلك بعظيم صفاته سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإن الله تعالى أرحم من كل راحم، فهو أرحم منكم بحالي وضعفي. فاجتمع في كلام يعقوب عليه السلام ما يفيد الإشارة إلى موافقته على ارسال ابنه بنيامين معهم، ومتوكلاً ومعتمداً على الله تعالى في حفظه، ورحمته به وبابنه بنيامين. ليبين بهذا أهمية التوكل على الله تعالى، وأن الأسباب مهما قويت فإنها قد تغدر وتخون، وتتهاون وتنهار، ولكن رب الأسباب خير من يحفظ، فهو أرحم وأقدر من جميع الأسباب.

وبعد ذلك الحديث الذي دار بين يعقوب عليه الصلاة والسلام وأبنائه، يتجه البيان القرآني الكريم إلى أنهم اتجهوا صوب رحالهم ليفتحوها ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عند فتحهم الأوعية التي حوت ما جاؤوا به من الطعام وغيره، وجدوا أن فيها بضاعتهم التي ذهبوا بها إلى مصر، كثمن لما أخذوا من الطعام، فرجعت إليهم بضاعتهم ضمن جهازهم الذي جهزهم به فتيان يوسف عليه السلام. مما يعني أن عليهم إعادتها إليه، لأنها ثمن لمتاعهم الذي حصلوا عليه، وربما مَثَّلَت إعادتها لهم كرم العطاء الذي استغنى به عن ثمن ما أعطاهم، فتكون مشجعة ومحفزة لهم للعودة إليه، ويدل على هذه الدلالة، هو قولهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فبادروا أباهم بياء النداء ﴿يَا أَبَانَا﴾ استثارة واستحثاثاً للتأمل في كرم ما وجدوا من ملك مصر ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فماذا نريد بعد هذا الكرم، وأي شيء نطلب بعد هذا الإحسان، بأن رُدَّت إلينا بضاعتنا، إضافة إلى ما كان من إكرام ضيافتهم. وفيه كذلك تعليل بأن البضاعة التي رُدَّت تكفي للعودة بها، وتحصيل الميرة التي نريد ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب لهم الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ ونحفظ أخانا بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ونزداد بذهاب أخينا بنيامين معنا حِمل بعير، لأن لكل فرد كيل خاص، بما يستوعب حمل بعير، وهو الحد الذي يستطيع البعير حمله ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فهذا الكيل المترتب على زيادة بعير أخينا بنيامين هو كيل يسير بسيط زهيد بالنسبة لملك مصر، فلن يتعاظمه ويستكثره، فلا يمنعه شيء من إضافته لنا.

وجاء رَدُّ يعقوب عليه السلام بالموافقة المتضمنة لأخذ الميثاق منهم ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أبعثه معكم حتى تُعطوني عهداً بالله تعالى على حفظه، فأستوثق بهذا

الميثاق منكم على بنيامين، وفي ارتباط هذا الموثق بالله تعالى، ما يفيد أن المقصود به: الحلف بالله تعالى ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ أي يكون هذا الموثق من الله تعالى أن تَرُدُّونَ بنيامين إليَّ، ثم استثنى حالة واحدة من هذا الموثق، وهو ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ إلا في حالة واحدة، بأن تُغلَبُون من عدو، يحيط بكم، فيغلبكم، أو تُهلكوا دونه، فتُعذَرُون حين ذلك، وأما في غير ذلك فلا عذر لكم من الميثاق الذي واثقتم به الله تعالى. وفي هذا الاحتراز حكمة النبوة باستثناء ما لا يستطيع دفعه الإنسان ومنعه، وإعذار أبنائه مما يعجزون عنه، مما يفيد بأن من حقوق الغير إعذارهم فيما لا يقدرون عليه، حتى في أعز الأمور وأهمها على النفس، وكذلك أهمية الاحتراز والاستثناء مما يعجز عنه الإنسان، ولا يحمل غيره ما لا طاقة له به، وأن الإنسان لا يُلام فيما يعجز عنه، ويمتنع عليه.

ثم يخبر الله تعالى بأنهم أعطوا أباهم ما أراد من الموثق ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ فلما أعطوا أباهم موثقهم الذي طلب، أشهد الله تعالى عليهم ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ فاستحثهم على الوفاء بشهادة الله تعالى على هذا الميثاق، فهو الموكل إليه أمرنا، وهو الرقيب علينا. وفي ذلك ما يفيد أن الإنسان إذا خاف من أمر أو نحو ذلك أن يستوثق، ولو كان من أقرب الناس إليه، حتى يطمئن هو، ويشعرهم برقابة الله تعالى، وعلمه وقدرته ومحاسبته.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

بعد أن أخذ يعقوب عليه السلام الميثاق من أبنائه، وأشهد الله تعالى على ميثاقهم، أوصاهم بالطريقة التي يدخلون بها مصر، ليمتاروا الطعام ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ فبدأ يعقوب عليه السلام بلفت انتباه أبنائه بياء النداء ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ﴾ لشد انتباههم لما يقول من وصية لهم عند دخولهم المدينة، وناداهم بعاطفة الأبوة ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ لما فيها من العطف والشفقة التي يستحثهم

بها على أن يحرصوا على الامتثال لما سيقوله لهم ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ فنهاهم نهي أمر وتحذير، بأن يتجنبوا دخول المدينة جميعاً من باب واحد، بل عليهم أن يدخلوها من عدة أبواب، وبالتالي يكون اجتماعهم جميعاً داخل المدينة. قال الإمام ابن جرير الطبري، مستدلاً بقول الضحاك، وقتادة رحمهم الله تعالى جميعاً: لأنهم كانوا رجالاً لهم جمال وهيئة، فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعة، من طريق واحد. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: خاف يعقوب عليه السلام عليهم العين(١) فقد تصيبهم العين لكثرتهم، وربما لتشابههم، بما يدل على أنهم إخوة لرجل واحد، مما يفيد أهمية الأخذ بالأسباب المانعة من حصول أسباب الشر، ثم يعضد هذا النهي ببيان العلاقة بين السبب وبين قدرة الله تعالى ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فإن هذا الإجراء من الأخذ بالأسباب لا يعني استغنائي لكم به عن الله تعالى فيما إذا أراد غير ما أريد، فإن الحذر لا يغني عن وقوع قدر الله تعالى، فإن قدر الله تعالى إذا أراده حصل، فإن أمر الله عَزَّ وجل يحصل كما يريد ربنا تبارك وتعالى، وإنما هو من سبيل الأخذ بالأسباب، كنهج أمرنا الله تعالى به، بما يفيد أنني لا أستطيع أن أدفع عنكم بهذه الوقاية شيء من قدر الله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فالحكم محصور فيما يحكم به الله تعالى على عباده، فليس لأحد من عباده استطاعة في أن يتوقاه بأي حال من الأحوال ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فقد توكلت عليه سبحانه وتعالى، وقد جاء السياق بالماضي، ليعطي دلالة على أن توكله عليه الصلاة والسلام سابق لنصحه ووصيته لأبنائه. فإن توكلي على الله تعالى في حفظكم وردِّكم عليَّ في أمن وسلام، وليس اعتماداً على دخولكم من أبواب متفرقة متعددة.

وهذا يعطي درساً عملياً في منهجية التوكل، والجمع بينه وبين الأخذ بالأسباب، وما يجب أن يعتقده المؤمن عن قضاء الله تعالى وحكمه وقدره، بأنه نافذ لا محالة، ولذلك قرر عليه الصلاة و السلام لأبنائه ولغيرهم عقيدة التوكل ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنني قد توكلت على الله تعالى، وأنه واجب على كل أحد آخذ بالتوكل، أن يجعل اعتماده على الله تعالى، وليس على الأسباب، ليبين أن الأسباب ماهي إلا سُنَن عملية يلزم الأخذ بها مع الاعتماد على الله تعالى. وفي هذا تنبيه وتعليم لأبنائه بأن لا يعتمدوا على ما أوصاهم به من الأسباب، بل يلزمهم ويلزم غيرهم الأخذ بحقيقة التوكل على الله تعالى.

وفي هذا بيان لأهمية وصية الأب لأولاده فيما يحتاجون إليه، وأن ينبههم لعلة ما يمكن أن يخدش عقيدتهم وإيمانهم ودينهم، أو أن يحصل عندهم قصور فهم في ذلك، أو جهل بالحقيقة، فيكشف لهم عن وصيته

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٢٣٦– ٢٣٨)

السببية، وعلاقتها بما يجب أن يعتقدوه، أو تستكمل به سلامة العقيدة. ووردت جملة ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ عامة، لهم ولغيرهم من المؤمنين، بأن المؤمنين الصادقين يجب عليهم التوكل على الله تعالى، وليس على الأسباب، وإنما الأسباب هي علل كونية قد سَنَّها اللهُ تعالى لمخلوقاته، وهو المدبر لها ولهم.

ثم يخبر الله تعالى بطريقة دخولهم مصر ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ فكما أمرهم أبوهم يعقوب عليه السلام، دخلوا مصر من أبواب متفرقة، فقد امتثلوا طائعين لما أوصاهم وأمرهم به أبوهم، وفيه دلالة على حرصهم على طاعة أبيهم، وامتثال أمره، وإدراكهم أهميتها، ووجوب لزومها. ثم يبين الله تعالى العلاقة بين دخولهم من الأبواب المتفرقة كما أمرهم أبوهم وبين قضائه وقدره سبحانه وتعالى ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فما كان لوصية يعقوب، وإنفاذ أبنائه لها بالدخول من أبواب متفرقة غِناً ومفراً عن قضاء الله تعالى الذي قضاه فيهم، فإن الذي قضاه الله تعالى فيهم هو سلامتهم عند الدخول مما خافه يعقوب عليهم، ولكن كانت حاجة في نفسه أمضاها ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ إلا أنهم قضوا أمراً كان في نفس يعقوب عليه السلام، كان يتوجس منه خوفاً على أبنائه. قال أهل التفسير عن الحاجة التي كانت في نفس يعقوب هي: خوفه العين، قال مجاهد رحمه الله تعالى: خيفة العين على بنيه[١] فكان هذا الأمر من السلامة متحقق لهم من الله تعالى، حتى ولو دخلوا من باب واحد، فقد قرره الله تعالى وحكم به، من أنه لن تصيبهم عين ولا مكروه، غير أن يعقوب دفع عن نفسه بالأسباب الجانب النفسي من التخوف، لعدم علمه بالغيب وبما قضاه الله تعالى. ولو قَدَّر الله تعالى أن يحصل لهم ما خاف منه يعقوب، لحصل ولو كانوا متفرقين. ليبين الله تعالى أن جهل الإنسان بالغيب، يُحدث عنده قلق نفسي، مهما كان إيمان الإنسان، وأن زواله أو تخفيفه هو بالجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى، فنبي الله يعقوب عليه السلام وهو نبي إلا أنه خاف على أبنائه، فاتخذ الأسباب، وتوكل على الله تعالى، فاطمأن بقضاء ما كان في نفسه من خوفه على أبنائه من العين، وهو عالم بأنه قد عمل ما بوسعه من الأسباب، ومتوكلاً على الله تعالى، وموقناً بأن قدر الله تعالى هو الكائن المتحقق. فما أحوج النفس لدرء ما تخافه بالأسباب، وتقويته بالتوكل على الله تعالى، مع العلم اليقيني بأن ما سيقضيه الله تعالى هو الكائن لا محالة. وواجب العبد بعد ذلك هو الرضا بما يقضي به عَزَّ وجل.

ثم يمتدح الله تعالى نبيه يعقوب عليه الصلاة والسلام بكريم المحامد والثناء ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ فإن يعقوب صاحب علم بتعليمنا إياه، فإن لديه تعليم رباني من الله تعالى، مما يدل على أنه حافظٌ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٩/١٣)

وعاملٌ بما عَلَّمَهُ الله تعالى من العلم، مما يفيد أن من يُلهمه الله تعالى الحق ويعمل به فإنه ذو حظ عظيم من الله تعالى، وهذا غاية في المدح والثناء على يعقوب عليه الصلاة والسلام، بأن خَصَّهُ الله تعالى بذلك الفيض من العلم، وممتدحاً له به، تأكيداً بأن تصرفه نابع مما حباه الله تعالى مما علمه الله عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون إلهام الله تعالى لمن يصطفيهم بالهداية والتوفيق، قال السيوطي رحمه الله تعالى: معنى ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ هم الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون إلهام الله لأصفيائه[1] فيعقوب عليه الصلاة والسلام من القليل العالم العامل بما علمه الله تعالى. وفي هذا غاية الثناء والمدح لجنابه عليه الصلاة والسلام.

ثم ينتقل السياق والبيان الكريم إلى حال أمرهم عند دخولهم على يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ فلما قدموا على يوسف، ودخلوا مجلسه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أدنى وقَرَّب إليه أخاه بنيامين، حتى يستطيع أن يُسِرَّ إليه بقوله ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فالذي أسر به يوسف لأخيه بنيامين هو أمرين، الأول: بيان العلاقة والصلة ﴿أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ فأخبره بأنه أخوه يوسف، وربما أخبره بشيء من التفاصيل التي تجعله يتأكد بأنه أخوه. والأمر الثاني الذي أسر به يوسف عليه الصلاة والسلام لأخيه هو: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فطلب من أخيه بنيامين الكف عن الحزن والتكدر والتأسف على ما صنعوا به، وعلى ما حَلَّ على أبيهم يعقوب من فراق يوسف عليهما السلام، ومما حصل من الاحتيال على يوسف بإلقائه في غيابة الجب. ولا يمنع أن يكون نهيه لأخيه عن الابتئاس شامل لتلك العلل الثلاثة، وهي: حزنه لحزن أبيه على فراق يوسف عليهما السلام، وحزنه على أخيه يوسف، وكذلك لما عملوا معه من سوء المعاملة، بدلالة خوف يعقوب على بنيامين من إخوته، إذ لم يرسله معهم إلا بعد أن أخذ عليهم موثقاً من الله تعالى. ومن جميل البيان: أن وصف فعلهم بصيغة المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ وما سبقه بصيغة الماضي ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ ليفيد استمرار أثر ما سبق من فعلهم عليه، سواء كان في شأن يوسف عليه السلام، أو كان على بنيامين، أو كان على أبيهم. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى وغيره أن يوسف أعلم أخاه بما خطط له، وبما سيصنعه مع إخوتهما: فاختلى بأخيه، وأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعَرَّفَهُ أنه أخوه، وقال له ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: فلا تأسف على ما صنعوا

(١) جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين (٢٤٣)

بي، وأمره أن يكتم ذلك عنهم، وألا يُطلعهم عليه، من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال عليهم بإبقائه عنده معززاً مكرماً معظماً[1]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر الله تعالى بما كان من تدبير الحيلة من يوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته، حتى يُبقي أخاه عنده كمرحلة لنقل والده إليه بمصر ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فمن قوة البيان أنه انتقل من استقبال يوسف عليه السلام لإخوته، وإسراره لأخيه بنيامين إلى كمال تجهيزهم في تناسق وتدرج بليغ، لا يبلغه فصحاء اللغة ولو اجتمعوا، ليظهر به الإعجاز البياني والبلاغي لكلام رب العالمين، ولفظة ﴿جَهَّزَهُم﴾ كما ذكرنا سابقاً تدل على كمال التام في تهيئة رحالهم، فهي أبلغ بيان في التعريف بفعل ما كان منه تجاه ما جاؤوا لأجله. ومن بلاغة البيان أيضاً وصف نوع ما جهزهم به بأبلغ توصيف، وأقصر لفظ، وأكثره معناً، ليجمع به جميع مفردات ما حملته رحالهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٠٢)

﴿ بِجَهَازِهِمْ ﴾ ليشمل كل ما يتعلق بهم، فيما كان من مبتغاهم، فلم ينقص منه شيئاً. فبعد أن هيأ لهم ما يصلحهم، وأعطاهم ما يحتاجونه، وما يصلح به سفرهم من المونة، واطمأنوا على ما جاؤوا من أجله تحدث إليهم.
ومن دلالات النص أنه نسب عمل التجهيز ليوسف عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ في حين الذين قاموا بالتجهيز هم الفتيان من الخدم، وذلك لبيان أن يوسف هو المتصرف، فيأمر بما يريد أن يأمر به. وقد حدث منه أمراً في التجهيز وهو ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ فقد جعل الصواع الذي هو السقاية، وهو إيناء من ذهب، مرصع بالجواهر[1] وهو ما يكيل به الطعام، فجعله في متاع أخيه الذي يحمله بعيره ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ فنادى منادٍ ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ والأذان يقتضي التكرار، مما يفيد أنه أخذ ينادي ويكرر النداء لإخوة يوسف عليه السلام. ولم يتم ذكر المنادي لعدم أهمية تعيينه، فهو منادي من فتيان يوسف عليه السلام، ولم يحدد أحداً بعينه، بل جاء النداء عاماً ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ ﴾ ونسبهم إلى العير التي يحملون متاعهم عليها، وهي الإبل، بمعنى يا أهل العير، ومثله: واسأل القرية. ثم وصفهم جميعاً بالسرقة ﴿ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ ليعبر عن جهله بموقع الصواع من عيرهم، وإذا رُبط وصف السرقة بما كان منهم مع يوسف عليه السلام، بأخذه من أبيه ورميه في غيابة الجب، كان ذلك سرقة له من أبيهم بحيلة، فلا يكن الوصف لهم كذباً، وأما بنيامين فيدخل معهم باعتبار أن الوصف على الغالب. ومن وجه آخر هو حكم تهمة، باعتبار المكيال الذي في الرحل، فحالهم هو حال السارق. وهذه حيلة من يوسف عليه الصلاة والسلام، يتدرج بها إلى أن يجمع أباه به، ويجمع شمل أسرته في مصر. وجملة ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ ﴾ تفيد تحديد الْمُنَادَى وصفتهم، للفت الانتباه بأنهم أصحاب العير، ثم تلاها علة النداء ﴿ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ فالنداء لكم من أجل سرقتكم، وقد تضمنت الجملة في سياقها ومبناها اثبات السرقة عليهم ﴿ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ فلعله باعتبار أنه لا يوجد غيرهم تلك الساعة حتى يمكن أن يشتبه بهم.

وبادر إخوته بالسؤال عن الشيء المفقود ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ فما الشيء الذي تفقدونه؟ فإخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُوا۟ ﴾ وهم مقبلون عليهم ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ فجملة ﴿ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم ﴾ تفيد أنهم توجهوا مقبلين على مَنْ ناداهم بتهمة السرقة، مما يفيد أنهم لم يكونوا

(1) جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين (٢٤٤)

بعيدين، بل بمجرد توجههم، وابتعادهم عنهم بمسافة قصيرة ناداهم المنادي، بحيث يسمعون النداء، وأثناء إقبالهم وجَّهُوا السؤال لمن ناداهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ما الشيء الذي تفقدونه؟ وفي قوله تعالى ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾ أن الفتية جمع، والمنادي واحد من الفتية، ويؤكده قول إخوة يوسف لهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ مما يدل على أنهم مجموعة من فتيان يوسف عليه السلام، والمنادي واحد منهم.

فأجاب فتيان يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ فقال خدم وعمال يوسف عليه السلام ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ فنسبوا الصاع أو الصواع للملك، باعتباره المالك، وكذلك لتهويل المسروق، وتهويل الجرم، وأنه ليس بالأمر السهل والهين. بل وجعلوا جُعلاً عظيماً لمن أتى به ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ تعظيماً وتهويلاً لشأنه، فإن لمن أتى به جعلاً من الطعام الكثير، الذي يستوعب حمله بعير، وهو الجمل. بل وأمعنوا في إظهار أهمية الصواع بأن تكفل المنادي أو رئيسهم بتجهيز البعير ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ فأنا ضامن لمن جاء به، أن أعطيه حِمل بعير، والمتكلم هنا مفرد، مما يدل على أنه قائدهم، ورئيس هذه المجموعة التي عنيت بأمر سرقة صواع الملك.

وهنا أجاب إخوة يوسف بالبيان والإيضاح ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فبدأوا كلامهم بالحلف بالله تعالى ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ فهو قسم يحمل التعجب، مع تأكيدهم لفتيان يوسف أنه قد حصل لكم من العلم بحالنا وأمرنا ما يُثبت لكم أننا لم نأت لمصر بقصد الفساد ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فبعد القسم، أكدوا مسلكهم بحرف التحقيق ﴿لَقَدۡ﴾ ثم بيان تحقق علم القائمين بشؤون الميرة من الطعام ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ بأمرنا وحالنا وأخلاقنا ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فنفوا أمرين يعلمه أولئك منهم، الأول ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو أمر عام، يشمل جميع أنواع الفساد، وكذلك كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ تفيد عموم الأمكنة التي يكونون فيها، ويمشونها، فنفوا عن أنفسهم ما يبرئ ساحتهم، فلم نأت من أجل الإفساد في الأرض عموماً، والثاني: تخصيص السرقة من عامة الفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ لأنه موطن التهمة، وأفادت جملة ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ نفي السرقة أصلاً من سيرتهم ونهجهم فيما مضى منه، وفيما هو حالهم اليوم، لأن ﴿وَمَا كُنَّا﴾ تفيد الماضي وما هم عليه اليوم، بما يفيد، طالما تعرفون عنا انتفاء الفساد منا عموماً في هذا المكان

وغيره، فكذلك لا يمكن أن تكون منا السرقة. وموطن ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ هو ما كان من رَدِّهم لثمن البضاعة إلى يوسف عليه السلام، عندما قالوا لأبيهم ﴿ مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾

فأجاب المنادي وأصحابه بتوجيه سؤال لإخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ ففي حال أنكم كنتم كاذبين في قولكم، فما هو جزاء من نجد الصواع في رحله، فأجاب إخوة يوسف عليه السلام ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فجزاء من وجد الصواع في رحله ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ أي فجزاء السارق أن يتم دفع هذا السارق للمسروق منه، فالجزاء أن يأخذ المسروق السارق، جزاء له ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي كذلك نفعل بالظالمين إذا ظلموا. قال الإمام القرطبي: أي كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا، أن يُسْتَرَقُّوا، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه[١] مما يفيد أن إخوة يوسف أخبروهم بالحكم في دينهم، ولم يكذبوا عليهم. وهو الأمر الذي يريده يوسف عليه السلام، ليحتفظ بأخيه عنده.

ثم بدأ التأكد من أمتعتهم أولاً ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فبدأ التفتيش للأمتعة بأوعيتهم، وهو جمع وعاء، وهو ما يوضع فيه المتاع، وفي هذا الإجراء من البدء بأوعيتهم ما يدفع الريبة والتهمة، من معرفتهم المسبقة بأنها في وعاء أخيه بنيامين، وتدبيراً محكماً للحيلة التي أراد بها يوسف الخير لأهله ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ثم استخرج السقاية التي هي الصواع من رحل أخيه بنيامين، فثبتت عليه السرقة، فيكون الجزاء هو الخدمة عند أخيه يوسف، القائم بأعمال الملك ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ كذلك كاد الله تعالى ليوسف عليه الصلاة والسلام، فقد ألهم الله تعالى يوسف هذا الصنيع من الحيلة، أي: فاحتلنا له، لأن الكيد هو الحيلة. قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: لما دَبَّر اللهُ تعالى ليوسف ما دَبَّر من ارتفاع المنزلة، وكمال النعمة على غير ما ظن إخوته، شُبِّه بالكيد من المخلوقين، لأنهم يسترون ما يكيدون به عمن يكيدونه[٢] ليعلم المؤمن أن لله تعالى إرادة وحكمة في مسيرة الإنسان، وأنه إذا أراد أن يغيث عبداً من عباده، ويعينه على من يعاديه، كاد له كيداً متيناً، وأوقع الظالم في شر أعماله، وأن الله تعالى ينجي عبده من غيره، مما يستوجب على العبد التوكل على الله تعالى، والاستعانة به، وتفويض الأمر إليه. وقد نسب الله تعالى الكيد

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٣/٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٧/٤)

لذاته العظيمة ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ ليفيد أنه سبحانه وتعالى هو الذي ألهم يوسف عليه السلام هذا الفهم وهذه الحيلة، فما كان له أن يدركها لولا إلهام الله تعالى له بها. فالمعين هو الله العزيز الحكيم.

ثم يبين الله تعالى مراد يوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فما كان ليوسف أن يأخذ أخاه بنيامين في سلطان الملك وقضائه، ولكن أجرى الله تعالى على لسان إخوته أن حكموا بالاسترقاق الذي قَبِل به يوسف عليه السلام، وهو استرقاق محدود الزمن. وهذا مما كاد الله تعالى به ليوسف، بمشيئته وإرادته، لا باستقلال إرادة يوسف عن إرادة الله تعالى، وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معناها ما ملخصه: ما كان ليأخذ أخاه في سلطان الملك وقضائه، لأن قضاء الملك فيمن سرق أنه يُضرب ويُغَرَّم، فلو أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه، فأجرى الله تعالى على ألسنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف، لطفاً حتى أظفره بمراده بمشيئة الله تعالى، فذلك معنى قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [1] وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى، فقال ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ [2] ليدرك المؤمن أن هذا التدبير هو بمشيئة الله تعالى ولطفه، فما كان هذا ليحصل في شأن بنيامين لولا مشيئة الله تعالى، وعظيم لطفه وتدبيره. مما يُعَلِّم المسلم أهمية التوكل على الله تعالى، وسؤاله والاستعانة به عَزَّ وجل، فهو خير معين.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم قدرته وكرمه ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: نرفع درجات من نشاء من العباد بما نعطيهم من العلم والإيمان، وغيره من صنوف العطاء من الهداية والتوفيق والتسديد، كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ وفوق كل صاحب علم عَلَّمَه الله تعالى مَنْ هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى. وفي هذا تنبيه على فضل العلم، وتفاوت الناس فيه، وأن على العالم أن لا يتكبر، فيدرك أن هناك من هو أعلم منه، بما يربي في المؤمن التواضع، فلا يعجب بعلمه.

ثم كان جواب إخوة يوسف عليه السلام هو توثيق صفة السرقة على أخيهم بنيامين وذلك بتعليل يعود على أخيه يوسف، بأنه قد حصلت منه السرقة، وما علموا أن يوسف هو من يخاطبهم ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه، قال: سرق يوسف صنماً

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٧/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٣/٢)

لجده أبي أمِّه، كسره وألقاه في الطريق، فكان إخوته يعيبونه بذلك[١]﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ فكتم يوسف عليه الصلاة والسلام في نفسه الجواب والرد عليهم، ولم يُظهره لهم، ليكتم مع الجواب كلامهم الذي قالوه في حقه، فقال في نفسه من غير أن يُظهره لهم ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ فأنتم شر صنيعاً وموضعاً ومنزلاً مما عللتموه من الموقف، ونسبتم أخاكم بنيامين إلى السرقة وهو بريء منها، وإلقائكم بيوسف في غيابة الجب، وكذبكم على أبيكم بأن أكله الذئب، فأنتم بذلك في أشر موضع ومنزل وصنيع ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ فإن الله تعالى أعلم بقولكم، وبما كان منكم من الفعل والوصف، بما يفيد أن الله تعالى هو الذي يحاسبكم عَزَّ وجل. ويدل هذا على توفيق الله تعالى ليوسف عليه السلام إذ جعله يكتم ما دار في نفسه، ولا يذكر لهم قولهم، وكأنهم لم يقولوا شيئاً ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ ولم يُظهر لهم غضبه. مما يُعَلِّم المسلم كيف يكون صابراً، وكيف يعالج الأمور بروية وحكمة.

ومن جمال بلاغة البيان ودقة السياق القرآني الكريم أن جملة ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أنها تستوعب ما ذكره أهل العلم، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنها ترجع إلى الكلمة التي ذُكِرت بعد هذا، وهي قوله تعالى ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ وأيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها ترجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه، وهي ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ فيكون المعنى: أسر جواب الكلمة، فلم يجبهم عليها. وقال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: أنها ترجع إلى الحُجَّة، فالمعنى: فأسر الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة[٢] ولا يمنع أن جميع ما ذُكِر قد أسره يوسف عليه الصلاة والسلام في نفسه، فيكون بهذا قد استجمع السياق تلك الدلالات من غير تكرار، وهذه قمة وغاية البلاغة البيانية، مع حُسن تركيب السياق، ليستوعب تلك الدلالات المتضافرة، ومن غير تعارض ولا تضاد، وهذا إعجاز بياني للقرآن الكريم في جمال نظمه وسعة عطائه الدلالي.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٣/١٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٩/٤)

ولما أن الموقف سيكون صعباً عليهم أمام والدهم يعقوب عليه الصلاة والسلام، وكذلك سيكون أثره عميقاً على أبيهم، خاطبوه تلطفاً بأبيهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ ﴾ فخاطبوه بلقب العزيز، أي: يا أيها الملك، فالعزيز هو الملك في كلام العرب[١] وكذلك خاطبوه بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يفيد التوسل إليه بالنظر فيما سيقولونه من توضيح لحال أبيهم، وما يقترحونه من حلول بديلة عن أخيهم نيامين. فبدأوا قبل مطلبهم بمقدمة أوضحوا فيها حال أبيهم ﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾ أن والده كبير في السن، فليس له القوة والقدرة التي تمكنه من زيارته هنا. وباعتبار شيخوخته فإنه لا يصبر عنه، لصغر سن بنيامين، وليس تأثر الأب على الابن الصغير كتأثره على الابن الكبير. فهو أبٌ، ومع ذلك هو شيخ، ولما أن مرحلة الشيخوخة متفاوتة، أضافوا إليها صفة كبر السن ﴿ شَيۡخٗا كَبِيرٗا ﴾ وفي هذا بيان استعطاف، وتليين قلب يوسف عليه السلام، ثم قدموا الحل الذي يرجونه منه ﴿ فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ ﴾ فخذ واحداً منا بدلاً عنه، بما يفيد اختار من تريد منا. ثم ختموا استعطافهم بذكر شيء من محاسن أخلاقه ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فأنت واحداً من جملة المحسنين، فصفتك التي اتصفت بها من الإحسان، تجعلنا نطمع في أن تحسن على أبيه وعلينا بأخذ البديل.

فأجاب يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ نعوذ بالله تعالى، ونعتصم به عَزَّ وجل أن نأخذ أحداً بديلاً عن الذي وجدنا متاعنا عنده، فكيف نعاقب من لم يكن له سبب في العقوبة، خاصة وأن الحكم صدر منهم قبل تفتيش الأمتعة ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فكيف نجازي غير الظالم ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ فإن أخذنا أحداً منكم مكانه فقد وقعنا في الظلم، واتصفنا بالظلم الذي لا نقبله.

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا

---
(١) المرجع السابق (١٣/١١٥)

عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بحال إخوة يوسف عليه السلام بعد أن يئسوا من استعطافه لأخذ أحدهم بدلاً من أخيهم بنيامين، فتشاوروا بينهم، حيث قال الله تعالى عنهم ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ فلما حصل لديهم اليأس من قبول يوسف عليه السلام أن يأخذ أحدهم مكان بنيامين ﴿ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ أي: انفردوا بأنفسهم، وأخذوا يتناجون فيما بينهم للخلوص إلى أمر يُخرجهم مما هم فيه. وقد بينت الآية الكريمة حالهم بدقة عجيبة، سواء حالهم من اليأس، أو حالهم عند تشاورهم، وما اكتنف ذلك من الضجر، وما تَلَبَّسهم من الهم والحزن، فقد بلغ منهم اليأس مبلغ التأكد من أن يوسف عليه السلام لن يستجيب لهم، ولن يتعاطف معهم البتة، حيث ورد وصف اليأس عندهم بصيغة المبالغة التي تدل على أنه بات مؤكداً أن يوسف لن يقبل بديلاً عن أخيهم بنيامين، فلما حصل لهم ذلك اليأس ﴿ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ أي: أخلصوا أنفسهم عن كل شيء، وانعزلوا عن غيرهم، وانفردوا لوحدهم، وبينت كذلك صورة حالتهم في تداول الأمر، بأنها كانت مناجاة ﴿ نَجِيًّا ﴾ أي بالحديث سراً عن غيرهم، فكان الحديث مناجاة، أي: بخفض الصوت إلى أقصى ما يمكن، بما يفيد التحوط من أن يسمعهم أحد. وهذا من دقائق بلاغة الوصف، والتصوير لحالهم.

وقد تحدث أخوهم الأكبر إليهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فقد بدأت المناجاة في الحديث بالأخ الأكبر، فهو كبيرهم، مما يدل على التقدير والاحترام فيما بينهم، فأبدى رأيه بطريقة الاستفهام، وفي نفس الوقت يقررهم بما كان منهم ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا ﴾ ألم يكن في علمكم أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً، بحفظ بنيامين، والعودة به إليه، ومنزلة هذا الموثق أنه من الله تعالى ﴿ مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عهداً من الله تعالى في حفظ ابنه، ورَدِّه إليه.

وفيه تقرير خوفهم من الله تعالى، وحرصهم على مراعاة مشاعر والدهم، وحفظ العهد الذي أخذوه على أنفسهم في شأن بنيامين. فبعد تقريره لهم بذلك، انتقل إلى تذكيرهم بتفريطهم في يوسف عليه السلام ﴿ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ ﴾ فقد وقع منكم فيما سبق التفريط في شأن يوسف، بتقصيركم في حقه وتضييعه. وفي هذا تذكير لهم بوجه التفريط الذي يستوجب منه عدم تصديق أبينا فيما سنخبره به عن ابنه بنيامين، مما سيجعل يعقوب عليه السلام يتأكد بذلك أنهم لا ميثاق لهم، وأنهم مهملون في حق أخيهم بنيامين، كما حصل لهم مع يوسف من قبل، بل سيتأكد بذلك أن فعلهم بيوسف كان أمراً متعمداً.

وإزاء هذه الحيثيات التي بدأ بها أخوهم الأكبر، فقد قرر البقاء بمصر، كما قال تعالى عنه ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ فقرر بصفة الجزم عدم مفارقة بلاد مصر ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ التي تعني: أنه لا عدول عن هذا القرار، وقد وصف بقاؤه في مصر بكلمة أبرح ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ﴾ التي تفيد البقاء والإقامة بها، وعدم مفارقتها والخروج منها إلا بأحد أمرين: الأول: ﴿ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ حتى يسمح لي بمفارقة هذه الأرض، والخروج منها، وفي هذا ما يبين شدة حيائه وخجله من أن يواجه أبيه بغير بنيامين، مما يدل على رغبتهم ومحبتهم في بر أبيهم إلا في شأن يوسف الذي انتزع منهم ذلك البر، بسبب قوة الحسد له. والأمر الثاني: ﴿ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ أو يقضي الله تعالى في شأني بحكم من عنده، فأخرج منها، أو بما يحكم به الله تعالى، ثم وصف ربه تبارك وتعالى بما يليق بجلاله وعظيم قضائه وسلطانه ﴿ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ فهو خير من يحكم، لأن أحكام الله تعالى عين العدل والحق، فلا تجري أحكامه جوراً على أحد، بل تجري بما يوافق عين الحق. مما يفيد ثقتهم بالله تعالى، وقوة إيمانهم بربهم عَزَّ وجل، وكذلك يبين أهمية أن ما يجري على العبد من الله تعالى هو عين الحق والعدل، فإن قضاء الله تعالى في عباده هو خير القضاء والأحكام، وفيه كذلك الثناء على الله تعالى بما هو له جَلَّ جلاله، فهو أهل الثناء والمجد.

وبعد قرار أخيهم الأكبر بالبقاء في مصر، أمرهم بالرجوع إلى أبيهم ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ ﴾ ثم أخبرهم بما يقولونه لأبيهم حتى يكون عذراً لهم ﴿ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾ فابتدأ بما يقولونه لأبيهم بنداء الاستعطاف المقترن بالأبوة ﴿ يَٰٓأَبَانَآ ﴾ ثم تأكيد فعل السرقة من أخيهم بنيامين ﴿ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ ﴾ بحصول السرقة منه، بحسب ما استخرجه فتيان يوسف من متاعه أمامنا، ثم أكد الحكم بما شاهدوه من الدليل، وهو استخراج الصواع من

متاع أخيهم ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ فشهادتنا مقترنة بما حصل لنا من العلم، الذي شاهدناه. ومن دقائق النص الكريم أسلوب الحصر للشهادة ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ نفي للشهادة منهم بدون علم ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ثم إثباتها بتحقق العلم على ما شاهدوه.

ثم استدركوا من ميثاقهم بالله تعالى جهلهم بالغيب، الذي وقع فيه أخوهم بنيامين، وهو الأمر الذي لم يكن بإرادتهم، فقالوا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ فلسنا محيطين بالغيب حتى نعرف ماذا سيحصل فنتقيه ونتلافاه، وتأتي بمعنى ما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق، أو سرق، وإلا منعناه منها. فهي عامة تفيد نفي العلم بالغيب على أي وجه وأمر.

ثم استشهدوا على صدقهم بأهل مصر، وبالقافلة التي كانوا فيها ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فاستشهدوا بأمرين: الأول: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ فاسأل أهل مصر التي امتاروا منها، وليس المقصود جميع أهل القرية، ولكن اسأل في القرية ممن علموا، ومنهم فتيان يوسف عليه السلام، والذين ربما تسرب منهم الخبر لغيرهم من أهل القرية. والشاهد الثاني: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ واسأل كذلك أهل العير، وهي القافلة التي كنا معهم في سفرنا إلى مصر، مما يفيد أن أهل القافلة قد علموا بذلك الأمر. وكل هذه لدفع الريبة عنهم من أبيهم، خاصة وقد سبقها شأن يوسف عليه السلام، والادعاء بأن الذئب أكله، والذئب منه بريء.

ومن الفوائد البيانية أنه قد يُطلق اسم المكان على قاطنيه، وقد يُطلق اسم أو صفة المجموعة على أصحابها، فيقال: اسأل القرية، والمقصود اسأل أهل القرية، ويقال: اسأل العير، ويقصد بها: أهل العير وراكبيها، ويقال مثلاً: أعط القافلة، ويقصد بذلك أهل القافلة، ويقال: اسأل المدرسة، ويقصد بذلك: أن تسأل المنتسبين للمدرسة، ويقال: اسأل الإدارة، أو إدارة الجامعة، ويقصدون بها سؤال المسؤولين عن الجامعة.

ثم بينوا لأبيهم أن هذه الشواهد إذا استفسرت منها ستؤكد لك صدقنا، حيث ختموا حديثهم أو ما أرسلهم به أخوهم بقولهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي لصادقون فيما أخبرناك به، من أنه سرق، فأخذوه بسرقته.

فردَّ عليهم نبي الله يعقوب عليه السلام بما يفيد أنه غير مصدق لهذا الخبر، ولما قبله عن يوسف عليه السلام ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ

﴿هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مما يدل على أنه ظن بهم السوء في أخيهم بنيامين، كما ظن بهم الكذب فيما حصل ليوسف من قبل ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ فقياساً على ما حصل ليوسف منهم، بقولهم لأبيهم: أكله الذئب، وكذلك علمه عن ابنه بنيامين أنه لا يسرق، فحكم عليهم بأنه قد زينت لكم أنفسكم أمراً لا أعلمه، وكلمة ﴿أَمۡرٗا﴾ وردت نكرة، لتدل على أنه شيء تخفونه عني، لا أعلم مرادكم منه. فبدأ علاج هذا الأمر بثلاثة أمور: الأمر الأول: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ الاستعانة بالصبر على ما أصابه، وما حدث من أبنائه، ولم يتصرف معهم بأمر آخر غير الصبر، مما يبين أهمية الصبر، والحكمة في معالجة الأمر، وما يترتب على الأخذ بالصبر من الحكمة في التعامل، ومعالجة المصائب، وتحقيق المقاصد بأجمل وأحسن ما يكون، وبما يُبعد المرء عن الإجراءات ذات العواقب الوخيمة.

والأمر الثاني الذي عالج به شأنه ومصيبته: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ فكان الدعاء مع الأمل في الله تعالى بأن يرد يوسف عليه السلام، وأخيه بنيامين، وكذلك ثالثهم الذي أقام بمصر، تضامناً مع بنيامين، هو خير علاج لمصيبته، بأن يردهم الله تعالى إليه جميعاً، وبالرغم من أن أمر يوسف عليه السلام قد انقطع خبره، ولكنه عليه الصلاة والسلام واثق في ربه تبارك وتعالى بأن يُعيده إليه، لإيمانه بحقيقة الرؤية التي رآها يوسف، وأنها لا بد وأن تتحقق له من الله تعالى. مما يفيد أهمية الرجاء في الله تعالى، وأهمية الأمل، والثقة في استجابة الله تعالى للدعاء، إذ أن ﴿عَسَى﴾ أفادت الترجي للأمر المحبوب والمرغوب ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ فيكون هذا الرجاء في الله تعالى ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وأما المطلوب والمرتجى فهو ﴿أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ ليس فقط اللذين غابا حديثاً عنه، بل حتى يوسف الذي غاب منذ سنين طويلة، مما يدل على ثقته بأن يوسف على قيد الحياة ولم يمت، ولم يأكله الذئب، وأن الذئب منه بريء.

والأمر الثالث الذي استعان به: هو تمجيد الله تعالى بكمال أسمائه وجلالة صفاته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فهو العليم، المتصف بالعلم الكامل، الذي يعلم مكان يوسف وأخيه، وهو العليم بشدة حزني، وهو الحكيم في تدبيره وقضائه، المنزه عن كل عيب ونقص في علمه وحكمه وحكمته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قاعدة عامة، وصفة ثابتة لله تعالى، فباعتبار السياق فهو العليم بيوسف وأخيه، الحكيم في تدبيره وحفظه لهما، وإعادتهما إلي بسلام. وأما باعتبار عمومها، فهو العليم، المتصف بالعلم الكامل، الذي يعلم كل

شيء، ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العليم بأدق ما يخفيه العباد، وما تكنه الصدور، وهو الحكيم في تدبيره وقضائه، المنزه عن كل عيب ونقص في علمه وحكمه وحكمته سبحانه وتعالى.

ثم بعد هذا الخطاب لأبنائه، خرج عنهم ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي: أعرض عنهم، من أن يطيل الكلام معهم، فانفرد بنفسه وبحزنه، بما يعطي أن التولي وقت الضجر هو أكرم وأفضل ما يصنع العقلاء، وما يجب أن يقوم به المرء، لما يتحقق به من المصلحة العامة، والمصلحة الذاتية والنفسية، ولما يعطي من دلالات عدم الرضا ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ وهو بيان لحاله من شدة الحزن والحسرة، وياء النداء أعطت دلالة الإطالة في الحزن على يوسف عليه السلام، وذكر يوسف بالتخصيص، لطول الفراق الذي بلغ به مبلغ الحزن مع الحسرة، ثم انضم إليه أخوه بنيامين. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أراد بقوله ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ الدعاء، فالمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف[1] مما يدل على تضاعف أحزان نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام، فأثار خبر بنيامين وأخيه الذي لزم أرض مصر وجدانه القديم المستمر معه، إلى الحد الذي ابيضت عيناه من كثرة دموع العين ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ وهذا من آثار شدة الوجد والحزن، وأن الحسرة لازمته، حتى كثر بكاؤه عليه الصلاة والسلام إلى أن تحول سواد لون عينيه إلى بياض، مما يدل على أن كثرة بكاء يعقوب أضعفت نور بصره، بما يدل على أنه موقن بأن يوسف لا زال حياً، وعلى قيد الحياة.

فالحزن أمر طبيعي على الإنسان، ولكن الفرق بين الذي يجزع ويسخط، وبين من يصبر ويحتسب، كما صبر يعقوب، عندما قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ويقول الله تبارك وتعالى عن حال يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكروب، فقد جمع مع هذا الكرب حبسه لحزنه، وتخفيه به، فأمسكه عن الظهور، وأمسكه عن أن يتصرف على منوال ومدار حزنه، أو أن يتكلم بما يجري على غِرَار من أصابه الحزن، فكان كاظماً لذلك الحزن عليه الصلاة والسلام، مما يبين أن حياة الأنبياء لم تخلوا من الابتلاء، وأن الابتلاء لا يعني غضب الله تعالى على المبتلى، فقد تكون منزلته عند الله عظيمة رفيعة، ولكن لله تعالى حكمة فيما يمضيه على عباده. ومن جميل البيان، وقوة بلاغة كلام رب الأنام أنه سبحانه وتعالى ذكر أثر البكاء ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ ولم يذكر البكاء، وذكر كذلك سبب البكاء ﴿ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ ولم يذكر البكاء ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ ففي تحول سواد العين إلى بياض دليل على كثرة البكاء، وكثرة جريان الدموع، وأما

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٠٣)

علة حصول بياض العين فهو الحزن، والحزن سببه التفكير فيما مضى، فرافقه البكاء وجريان الدموع. فابيضت العين، فكان ذلك دليلاً على كثرة البكاء.

ثم يخبر الله تعالى بجواب أبناء يعقوب لأبيهم، مما يدل على عودة يعقوب لأبنائه بعد أن تولى عنهم، واختلى بنفسه شيئاً من الوقت ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ فبدأوا كلامهم الحواري مع أبيهم بالقسم ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ﴾ وذلك على سبيل الشفقة على أبيهم، والتعجب من أمره ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ والله إنك لا تفتر، من ذكر يوسف، فما تزال تذكره ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي حتى يُذيبك شدة الحزن الذي أنت فيه، فتمرض بسببه، ويهلك عقلك ويفسد جسدك، ويُهْرِمُك الحزن الذي أنت فيه، وهو ما دون الموت ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ أي: تكون من الميتين، إذ يؤدي بك حزنك الشديد إلى هلاكك، بموتك وفقدك للحياة. وهذا تشخيص منهم، وهو من باب النصح، والحرص على أبيهم، وإن كانوا هم سبب علة حزنه، وشدة أساه، ومنشأ همومه وغمومه، وفي هذا النصح لأبيهم ما يدل على شفقتهم ورحمتهم به مما عرفوا من خطورة الحزن على صاحبه وما سيؤول إليه الأمر، وهذا بحسب تقديرهم وظنهم، وما يتوقعونه، وليس جزماً بما سيكون، لأنه لا يخفى على مثلهم أقدار الله تعالى، وما يمكن أن يحصل من تغيير. وسياق القول يحمل التعجب والإنكار من استمرار أبيهم في ذكر يوسف والتعلق به، مع مرور هذه السنوات الطويلة على أمره وشأنه. كذلك وهو من باب الإشفاق على حاله من المرض والهلاك.

ومن دقة البيان القرآني الكريم أن جملة ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ وردت بصيغة الفعل المضارع، الذي يفيد الماضي والحاضر مع الاستمرار المتوقع، فإنك في حزنك من قبل، والآن، وأنت مستمر عليه، ليؤدي بك إلى هلاك جسمك وفساد قوتك، أو إلى الهلاك بالموت. فلسان حالهم يقول: حاول أن تتخلص من تذكرك ليوسف، وحزنك عليه، وانشغل عنه حتى تنساه.

فيرد يعقوب عليه السلام في حواره مع أبنائه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فحصر شكواه إلى الله تعالى بأداة الحصر ﴿إِنَّمَآ﴾ التي حصرت شكواه بأن تكون لله وحده لا شريك له، وليست لكم، ولا لغيركم من العباد، بل إن بث التضرع محصور رفعه إلى مقام الله عَزَّ وجل، فنفى أن تكون شكواه من حزنه على يوسف هي لأحد من غير الله تعالى، برجاء وطلب معالجتها، فإن بثها محصور له عَزَّ وجل. فيقرر بذلك توحيد وإفراد الله سبحانه وتعالى بعبادة الدعاء والرجا، والاستعانة والاستغاثة. لأن الشكوى: إظهار

وإبداء التوجع، بقصد طلب العون على رفعه وإزالته، وهي كذلك: الإخبار على سبيل التوجع ورفع ما يتوجع منه إلى المشتكى إليه. والشكوى المرفوعة إلى الله تعالى هما أمرين: الأول ﴿ أَشْكُواْ بَثِّي ﴾ والثاني معطوف على الأول ﴿ وَحُزْنِيٓ ﴾ والمرفوع من الشكوى هو الله وحده لا شريك له ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾

وقد جاء محور الشكوى المرفوعة إلى الله تعالى بلفظ البث ﴿ أَشْكُواْ بَثِّي ﴾ والمقصود به نشر ما في النفس من التوجع، وما انطوت عليه من الغم المكظوم والمكتوم به في النفس، وما نتج عنه من شدة الحزن. ومع أن البث هو نشر وإذاعة الأمر، إلا أن هذا كان محصوراً فيما بينه وبين ربه تبارك وتعالى. ومع ذلك كانت الشكوى منه محفوفة بالكتمان. ثم عطف على البث: الحزن ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والحزن هو الغم والكدر والكرب إثر ما أصابه من فراق يوسف عليه السلام، فإن البث والحزن مرفوعان مني إلى الله تعالى.

ثم بين خصوصية ما يعلم عن الله تعالى، وما قَصُر به علمهم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإنني أعلم مما علمني الله تعالى مالا تعلمونه أنتم، مما يدل على أن الله تعالى خصه بوحي من العلم، وأن من ضمن علمه المخصوص ما هو في شأن يوسف عليهما السلام. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: أعلم من لطفه وإحسانه وثوابه على المصيبة ما لا تعلمون أنتم[١] وهذا هو المعنى العام، وذكر ابن عباس رضي الله عنهما: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأني سأسجد له[٢] فيكون ذلك مما علمه الله تعالى.

وفي قول يعقوب عليه السلام ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يفيد توقفوا عن نهيكم ولومكم لي، فلا أحد من الخلق يمكنه أن يوقف ما أنا فيه، وأن ما أعلمه مما علمني الله تعالى يفوق ما تعلمون، وفيه وعظ وإرشاد لهم، ولم يتكلم معهم في حواره بشيء من الحدة والغضب، مما يدل على حلمه وصبره، مع ما هو فيه من الوجد والحزن. وهناك تساؤل عن كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً؟ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والصحيح أن ذلك عن أمر الله تعالى، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء، وكان يوسف

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٩/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٧/١٣)

يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه[١] مما يبين أن لله تعالى حكمة فيما يقضيه ويجريه من أقدار، لا يعلمها إلا الله تعالى، فالحياة والعمر يمضيان وينتهيان، ولكن عظيم عطاء الله تعالى ثابت لا يتغير، وهو الكفيل بمجازات الصابرين والشاكرين. اللهم اجعلنا من الشاكرين الذاكرين.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بأن يعقوب عليه الصلاة والسلام أنهى حواره مع أبنائه بما لديه من العلم واليقين بأن يوسف على قيد الحياة ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فخاطب أبناءه بعاطفة الأبوة، وبياء النداء، وبانتمائهم إليه ﴿ يَٰبَنِيَّ ﴾ بما يفيد التلطف منه عليه السلام مع أبنائه، فلم يمنعه الحزن، ومطالبتهم أن يكف عن حزنه على يوسف بالحديث معهم بهذه الملاطفة، ليعطي درساً في منهجية احتواء الأبناء، مهما حصل منهم. ثم تلى هذا النداء الكريم أن أمرهم بالبحث عن يوسف ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ويدل هذا الأمر بالبحث عن يوسف عليه السلام أنه متيقن من حياته، إما بالرؤيا، أو بإلهام من الله تعالى. وفي الجمع بينه وبين أخيه بنيامين في أمر التحسس ما يدل على أنه أيقن بأنه في مصر، في الموطن الذي فيه بنيامين، مما يرجح أنه قد تظافرت الرؤيا مع إيحاء الله تعالى له، فعين وحدد لأبنائه طريقة البحث عنهما، بأن يكون بالتقصي في تستر وخُفية، لأن التحسس طلب الشيء من خلال التنقيب بالحواس في خُفْية وتستر، وهو فعل من الحس والإحساس، وهو لفظ يدل على المبالغة في البحث والتقصي بهدوء وروية، وأن الأمر يتطلب تَفَعُّل وتكلف وتكرار المعاودة، وعدم اليأس، حتى تحصلوا على خبر الإثنين معاً. مما يعطي أهمية

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٠٦)

إفهام وتعليم الْمُرْسَل بما يحتاجه من دقائق التوجيه لتحقيق الهدف والغاية، وأن بعض الأمور تحتاج إلى دقة وروية.

ثم أرشدهم إلى أمرٍ غاية في الأهمية، وهو الاعتماد والتوكل على الله تعالى، وعدم اليأس ﴿ وَلَا تَأْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ فأمرهم بلزوم الصبر والجدية في التقصي والبحث، وعدم الاستعجال، الذي سببه اليأس، فنهاهم عن اليأس، وهو القنوط من فرجه سبحانه وتعالى وترويحه وتنفيسه لكربتنا، فلا تقنطوا من أن يُرَوِّح اللهُ تعالى عنا ما نحن فيه من الحزن، ثم أرشدهم إلى أن حال اليأس هو من طبع القوم الكافرين ونهجهم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فلا يقنط من ترويح الله تعالى وتفريجه للكربات إلا القوم الجاحدون لله تعالى، لأن مداركهم منصرفة عن قدرة الله تعالى، فيحل عليهم اليأس والقنوط فيما يصيبهم من الكرب. مما يفيد أن اليأس من روح الله تعالى منافٍ للإيمان، وأن الإيمان بالله تعالى يستوجب العلم واليقين بقدرة الله تعالى. ومثاله في هذا المقام نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام. وفي هذا إرشاد لأبنائه بعدم اليأس.

ثم انتقل السياق الكريم من حديث إخوة يوسف مع أبيهم إلى دخولهم على يوسف عليه السلام في مصر ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ورد الانتقال من محادثتهم مع أبيهم في فلسطين، أرض كنعان، إلى حديثهم مع يوسف عليه السلام في مصر، فورد الانتقال بأسلوب غاية في بلاغة البيان الانتقالي من موقف إلى موقف آخر، فقد كان بعيداً في زمنه، وبعيداً في مكانه، إلا أن السامع والتالي يسترسل للآيات من غير توقف أو تساؤل عن ذلك الزمن في الانتقال من بلد إلى بلد، ومن الحديث مع الأب، إلى الحديث مع يوسف عليه السلام في مصر. والسبب قوة الإعجاز في بناء السياق، ليتم التقدير الذهني للزمن والحدث من خلال الْمُخَاطب: فاستجابوا لأمر أبيهم، وذهبوا إلى مصر، ليتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه.

وعند دخولهم على يوسف عليه الصلاة والسلام خاطبوه بلقب العزيز، أي: أيها الملك ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ تقديراً لمكانته، وإجلالاً له، ورغبة في كريم عطائه، وبدأوا كلامهم بياء النداء ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ الذي يدل مع مجموع ما بعده من الكلام على استعطافه لتحقيق مطلبهم من العطاء، مقابل قلة الثمن وضعفه، وبدأوا كلامهم ببيان حاجتهم وفاقتهم من خلال بيان أثر ما أصابهم وأهليهم من شدة الحاجة، وذلك طمعاً منهم فيما يرجون تحقيقه لهم من زيادة كمية الميرة ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ وجاء هذا الوصف في ثلاث كلمات، غاية في بلاغة الاختصار، ورحابة المعنى والمقصد، وتعظيم الشكوى من الْمُصَاب، فكلمة ﴿ مَسَّنَا ﴾ أفادت قوة وشدة المباشرة والملامسة للضر الذي لحق بهم، فقد خالط الضر حياتهم من كل وجه،

وأن الذي مسهم بشدته هو الجوع، ووصفوه بأثره، وهو الضر ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي سوء الحال في أنفسهم وأبدانهم، ولم يقصروا الضر الذي أصابهم على أنفسهم، فيقولوا: مسنا الضر، بل أضافوا أهلهم إليهم، تخصيصاً لهم، وإبرازاً وإعلاماً للعزيز بأن لهم أهل ينتظرون ما يسد فاقتهم، وهذه الشكوى على بلاغتها إلا أنها تدل على ما أصاب يعقوب وأهله وأولاده من الشدة، وقد اجتمع له مع حزنه، فاقة الطعام، ليتبين أن الابتلاء من الله تعالى لأصفيائه عن حكمة منه عَزَّ وجل، وليس في كل حال أنها تعني عدم الرضا عن العبد، فقد كان الابتلاء لنبي الله تعالى يعقوب عليه الصلاة والسلام، ليعطي درساً في الصبر، والتضرع إلى الله تعالى، وحُسن الظن به تبارك وتعالى. وكذلك أفاد: مشروعية شكوى الحال لمن يستطيع أن يكشفها ويزيلها، لأنه من باب الأخذ بالأسباب.

ثم أخبروا الملك الذي هو يوسف عليه السلام بما جاؤوا به ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ فوصفوا بضاعتهم التي جاؤوا بها لأخذ الميرة من الطعام بأنها ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: قليلة، ومزهود فيها، وهي التي يدفعها ويتركها التجار لعدم رغبتهم فيها. وفي هذا الوصف الدقيق، غاية الدقة في البيان والإفصاح الذي استجمع أوصاف ما يزهد فيه الإنسان، والتي تنم وتوضح مقدار فقرهم، وحالتهم التي تمنعهم من دفع ما هو جدير بما يأخذونه مكافأة للميرة التي يطلبونها ويرجون أخذها من الملك. وأما كلمة ﴿بِبِضَٰعَةٍ﴾ فهي ما يُعَدُّ للتجارة، وغالباً ما تكون من السلع التي يحتاجونها في بلاد مصر، فتكون ثمناً لما سيأخذونه من مصر، فهي أخذ بضاعة، وإعطاء بضاعة بديلة عنها.

ثم تدرجوا بعد الشكوى ووصف ما جاؤوا به إلى مطلبهم ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فلا تعادل الكيل لنا من الميرة بما جئنا به من بضاعة، بل أكرمنا باستيفاء العطاء، ولا تُنقِص من العطاء شيئاً لرداءة وضعف وقلة بضاعتنا، وطلبوا منه الزيادة عن ذلك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ فعطفوا على استيفاء الكيل أن يتصدق عليهم، ولم يعينوا نوع الصدقة، التي قد تكون بزيادة الميرة، أو بغير ذلك مما يحتاجه ممن مَسَّهُ الضر، ليكون أمراً يقدره الملك من خلال ملخص ما عرضوه عليه. وذهب ابن عيينه رحمه الله تعالى إلى أنهم لم يقولوا ذلك إلا والصدقة لهم حلال، وهم أنبياء، فإن الصدقة إنما حُرِّمت على محمد صلى الله عليه وسلم(١) وقد يكون مرادهم من اطلاق الصدقة وعدم تعيينها نوعاً وقدراً، أن تشمل رَدَّ أخاهم بنيامين عليهم. ثم حثوا يوسف على ذلك برجاء ثواب الله تعالى، واطماعهم فيما عند الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فإن الله تعالى يثيب المتصدقين بالجزاء الجزيل. وفي هذا تحفيز له بكمال الوفاء، وزيادة العطاء، مما استثار عواطف يوسف عليه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٥/١٣) وذكره ابن الجوزي رحمه الله (٢٠٩/٤)

الصلاة والسلام من حال أبيهم وأهليهم، وهنا بادرهم يوسف عليه السلام بالتعريف بنفسه من خلال إرجاعهم إلى سابق عهدهم بما فعلوا به، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فأعادهم إلى سوء فعلهم بسؤال تذكير واستنكار وتعظيم وتهويل لما فعلوا، بأنه لا يُنسى، وتقريرهم بسوء ما صنعوا به وبأخيه، قال ابن الأنباري: ما أعظم ما ارتكبتم، وما أسمج ما آثرتم من قطيعة الرحم، وتضييع الحق[1] وفي نفس الوقت تلطف معهم، وجمع مع العتاب التماس العذر، بأن أعاد فعلهم إلى ما مضى من جهلهم ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فما أكرمه من نبي عليه الصلاة والسلام. فقد أوعز ذلك الشر منهم بالإشارة إلى أن ذلك فيما كان من سابق أمركم، وذلك تلطفاً بهم، فأخبرهم وذَكَّرهُم وأعادهم إلى شنيع صنعهم، ولم يحكم على حاضر حالهم بما كان منهم ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ وهذا من جميل سجايا يوسف عليه الصلاة والسلام، مما يعطي المنهجية الخلقية في الحكم، والكرم عند التعامل، وعند العتاب، وعند حصول القوة والرفعة والعزة، وضعف الخصم وحاجته، كما أنه لم يزد على ذلك التذكير بشيء، واكتفى بذكر خلاصة ما كان منهم، مما يعطي أهمية اللطف في العتاب. وأما في تصريحه بما فعلوا بأخيه من سوء المعاملة فإنه يدل على أن بنيامين قد أخبر أخاه يوسف بسوء تعاملهم معه.

وبعد تقرير يوسف عليه السلام لإخوته بتذكيرهم بما فعلوا به وبأخيه من سوء التعامل، أجابوا على سؤاله بسؤال استفهام، يقررون به ما خمنوه من سؤاله لهم بأنه يوسف عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ أي عرفنا من سؤالك أنك أنت يوسف، أليس كذلك، بما يفيد طلب تأكيد ما تقرر عندهم بأنه أخوهم يوسف عليه الصلاة والسلام، إنها مواجهة تحمل في طياتها من خلجات النفس ما لا يستطيع الْمُخَاطب أن يَلُمَّ به لكثرته، ولعمق فيض دلالاتها. فباشرهم يوسف عليه السلام بتأكيد وتقرير أنه هو يوسف ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ ولم يقل في جوابه: نعم أنا هو. بل قال ﴿أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ ليرجع بهم وبذاكرتهم إلى ما فعلوا به، وكأنه يحمل في دلالة قوله: أنا يوسف، أي أنا الذي رميتموه في غيابة الجب. ثم زاد في كمال جوابه لهم ﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ تأكيداً بأنه الأخ الشقيق، الذي يتبادل معه الحب والتواد، وهي رسالة لهم بأن الأخوة هي التي تحمل التواد والحب، إذ لم يقل: هذا أخي وأنتم إخوتي. فاكتفى بتعيين من يتبادل معه المحبة والتواد، وكذلك بيان تأكيدي بأنه الذي يماثلني فيما حصل له من أذى. وجملة ﴿ وَهَٰذَآ أَخِى) تعطي مجالاً للتأمل في كيف أن جمع

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٠٩)

الله تعالى بيننا، وهي مفردة واحدة مما امتن الله تعالى به عليهما ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ لتفيد أن الله عَزَّ وجل قد امتن علينا بمنن كثيرة، ومنها أن جمع بيننا بعد فراق بتفريق منكم. وفيه لفت انتباههم إلى أن يتأملوا ما هو فيه من العزة والرفعة والمكانة العظيمة.

ثم أرشدهم إلى العلل والأسباب التي تتحقق بها مِنَنُ الله تعالى على العباد ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ وقد وردت هذه الأسباب بصيغة العموم، لتفيد أنها قاعدة، له ولهم، ولكل من يتحلى ويتمسك بها. فالأولى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ ﴾ أي: من يسلك في سلوكه مسلك التقوى، بالخوف من الله تعالى، ورجاء ثوابه. والثانية ﴿ وَيَصۡبِرۡ ﴾ أي: يصبر على طاعة الله تعالى، وعلى أقدار الله عَزَّ وجل، وعن معصية الله سبحانه وتعالى، ومغالبة هواه، فإن الله تبارك وتعالى يَمُنُّ عليه بالخير ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فوصف التقوى والصبر بأنها من أعمال المحسنين، وأن الله جَلَّ جلاله لا يُذهب ثواب إحسانه، بل يجازيه بخير الجزاء، ويعوضه على تقواه وصبره بما يعجز عن تحقيقه، وعن استيفاء شكره. وفي هذا تعليم لإخوته بمنهجية تحصيل منن الله تعالى وتوفيقه، بأنها من خلال التقوى والصبر. مما يعطي درساً وموعظة لكل مؤمن بأن عليه أن يتقي الله عَزَّ وجل في شأنه، وأن يعالج أموره بالصبر عن الرَّد على السيئة بمثلها، بل يصبر، ويتجاوزها بقدر ما يستطيع، طلباً لثواب الله تعالى. وفيها كذلك أن من أبرز صفات الإحسان هي: التقوى والصبر، وأن من يتق الله تعالى ويصبر فإنه قد دخل في جملة المحسنين، وأن الله تبارك وتعالى يحفظ جزاء المحسنين لهم، ولا يذهب عنهم سدى.

وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ قاعدة عظيمة في التعامل عند مواجهة المكر، وعند مواجهة الأعداء، وعند مواجهة الحاسدين، وعند مواجهة المغريات، وعند مواجهة المصاعب، فيتعامل وفق قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بما كان من جواب إخوة يوسف عليه السلام له ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ فبدأوا كلامهم بالقسم بالله تعالى، تأكيداً لبيان خطئهم، وتفضيل الله تعالى له عليهم بفضائل عظيمة كثيرة ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ وهو قسم بالله تعالى، ثم بعد تأكيد وتعظيم ما

سيقولون، اعترفوا بما كان منهم، وبرفعة أخيهم يوسف عليهم ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فأكدوا كلامهم بحرف التحقيق ﴿لَقَدْ﴾ لقد تحقق فيك اصطفاء الله تعالى لك من بيننا، وخصك بعظيم فضله وكرمه، ومن ذلك الملك، والحكمة والعقل، وسياسة الأمر، وما تحلى به من الحلم والصبر والْحُسن والجمال. ثم خَطَّأوا أنفسهم فيما كان منهم مع يوسف عليه السلام وأخيه ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي: كنا آثمين مذنبين في حقك، ومن جميل أسلوب إخوته أنهم لم يبادروا بالاعتراف، بل بادروا بما هو أقوى، وهو تخطئة أنفسهم، من غير الدخول في أي تأويل. وهذا من أقوى أساليب الاعتذار والندم، فقد نفعهم الله تعالى بما كان من أمر يوسف عليه السلام، حيث كانت موعظة لهم ولغيرهم. وقد نسبوا التفضيل إلى الله تعالى ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ واعترفوا له بمقامه الذي بوأه الله تعالى.

فأجابهم يوسف عليه السلام بكريم الكلام، وجميل الخطاب والجواب، الذي يدل على سماحته، وكريم سجاياه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا لوم عليكم، ولا تأنيب، ولا تقريع، ولا توبيخ على ما فعلتم، بما يفيد فلن أعيد ذكره لكم، وبما يفيد كذلك: لا عتاب اليوم عليكم مني، فاليوم هو يوم صفاء ومسامحة مني لكم، ومن جميل البيان أن عَيَّنَهُم على وجه التخصيص ﴿عَلَيْكُمُ﴾ إمعاناً في التحديد الذي تطيب به نفوسهم، ليقدم يوسف عليه السلام درساً في المصالحة والمسامحة، والتنازل عن حقه في أمر عظيم. ليكون سلفاً وقدوة لكل مؤمن في منهجية التنازل والتسامح، وتخليص النفس من الحقد، ومعاملة المخطئ بجميل المعاملة من الصفح والتكريم بعد تقريره بخطئه، واعترافه بذنبه. ثم أردف وعَقَّب على جميل صفحه وكلامه، بالتماس مغفرة الله تعالى لهم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهو دعاء لهم بالمغفرة من الله تعالى، فلم يكتفِ بالتنازل عن حقه فقط، بل من كريم فضله أن سأل الله تعالى لهم المغفرة، بأن يستر الله تعالى عليهم ما كان منهم. وهذا من جميل الإحسان، بأن يكرمهم ويطيب خواطرهم بسؤال الله تعالى المغفرة لهم، وأن يستر ما كان منهم. ثم أرشدهم إلى عظيم رحمة الله تعالى ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فلا راحم أرحم من الله تعالى، فإذا كان الناس يتراحمون بينهم بفضل الله تعالى، ويتنازلون عن حقوقهم، فيفرحون بذلك التراحم، فإن الله هو أرحم من كل راحم، فلا حدود لرحمته سبحانه وتعالى، وفي هذا مزيد تَطْيِيب لخواطرهم، وتذكير لهم بالله عَزَّ وجل، وموعظة يستأنسون ويفرحون بها من هول المفاجأة.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟

تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى قضية الاستعداد لعودة إخوة يوسف لأبيهم، بما يفيد أنهم أخبروه بتفاصيل أمره، فأخبرهم بما يفعلون ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فبدأ يوسف عليه السلام إخوته بتوجيههم إلى الذهاب إلى أبيهم، وأعطاهم قميصه، وأمرهم بإلقائه على وجهه، وأنه سيعود بَصَرُهُ إليه، وكونه جزم بعودة بصر أبيه إليه، فإن في ذلك دلالة على أنه وحي من الله تعالى، وكرامة ليوسف، وليعلم إخوته وغيرهم منزلة يوسف عند الله تعالى، لأن الجزم يفيد التحقق من الشيء المجزوم به. وهذه نعمة عظيمة من النعم التي امتن الله تعالى بها على يوسف، وكذلك فيها التدرج مع يعقوب عليه السلام في رؤية ابنه، فكان أولها أن وجد ريح يوسف من مسافة بعيدة من القميص الذي حُمل إليه، وفيه بشارة وكرامة ليعقوب عليه الصلاة والسلام بحياة ابنه يوسف، حتى لا يتفاجأ بذلك، مما يدل على أهمية التدرج، وخطورة المفاجأة القوية المباغتة، بمثل هذا الموقف. وجملة ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفيد جميع من يشملهم الأهل، فهي شاملة جامعة، بل ولم يكتف بطلب أهلهم، بل أكدها بالبيان التأكيدي، بإضافة كلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ مما يدل على حرصه على أن لا يتأخر منهم أحد، مهما كان العدد.

ثم توجهت عيرهم إلى الشام ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي فبعد أن خرجت مراكبهم، وانفصلت عن مصر، منطلقة إلى الشام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾

أي قال يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قيل: أن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فَأُذِن لها، فأتته بها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هاجت ريح، فجاءت بريح يوسف من مسيرة ثمان ليال[1] وهذه معجزة ربانية ليعقوب عليه الصلاة

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٣٣٢-٣٣٣)

والسلام، بأن يدرك ريح يوسف من قميصه على مسافة بعيدة جداً، قبل أن يقترب حامل القميص منه، فلا يمكن أن يكون ذلك لبشر أبداً إلا بقدرة خارقة للعادة من الله تبارك وتعالى. وكذلك كيف استعاد يعقوب ريح يوسف بعد غياب امتد لعشرات السنين. قال ابن جريج رحمه الله تعالى: وكان قد فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة[١] وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء. وهنا أخبر يعقوب عليه الصلاة والسلام من كان عنده من الأهل بما وجد من ريح يوسف عليه السلام، ثم قال لمن عنده تأكيداً وبياناً من أنهم لن يصدقوه ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي: لولا تُسَفِّهوني، وتعنفوني، وتلومونني، وتكذبوني، وتهُرِّموني، وقد ذكر هذه المعاني ابن جرير رحمه الله تعالى[٢]﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ والتفنيد نسبة إلى الفند، وهو: الْخَرَف، وإنكار العقل من الهرم، والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني[٣] أي لولا استهرامكم لي لصدقتموني.

ومن بلاغة كلمة ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ أنها استوفت جميع ما يمكن أن يقال في حق من لا تستوعب العقول كلامه، لأنه أمر معجز خارق لقدرات البشر، خاصة من أنه لا علامة له ظاهرة، ولا أحد مَاثَلَهُ وتوافق معه في ذلك من الأهل، فإحساسه بريح يوسف عليهما السلام أمر غير طبيعي للإحساس البشري. فَرَدَّ عليه من كان عنده من أهله ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ فبدأوا قولهم بالحلف بالله تعالى ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لأنه أمر مستبعد تماماً على الحقيقة، ثم أكدوا كلامهم بنون التوكيد ﴿إِنَّكَ ﴾ ذاهب ومسترسل في خطئك وزللك المخالف للصواب من القول بحياة يوسف، والذي أنت فيه منذ أن فقدته، وذلك لإفراطك في حب يوسف، إذ لم تفتر عن ذكره ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ إنك ما زلت مستمر في وهمك بأن يوسف حي، يُرزق. مما يدل على أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لديه علم بما عَلِمَهُ من رؤية يوسف التي قصها عليه، أو أن الله تعالى أوحى له بذلك، فكان متأكداً من وجوده حياً، وأن الله تعالى سيبلغه ما رآه في رؤيته، وأما من كان عنده من أهله فإنهم لجهلهم بذلك عَدُّوا كثرة ذكر يعقوب وتحريه وصول يوسف، أو خبره، شيء من ضرب الضلال، الذي يُمثل البعد والمجانبة للحقائق. وهنا يتبين أن الإنسان يحكم بما يراه من واقعه، وذلك لجهله بالغيب. كما أن في هذا الموقف صورة ومثالاً لمن يعرف شيئاً غائباً، ومن هو جاهل به، فهو صورة وحدث لمجموعتين، مجموعة جاهلة بما غَيَّبَهُ الله تعالى عنهم من الحقيقة، ومجموعة عندها علم بالحقيقة الغائبة، سواء في الحكم، أو في الانتظار والرجاء، ولتظهر المفارقات في رؤية وتقييم كل مجموعة

---

(١) المرجع السابق (٣٣٥/١٣)

(٢) المرجع السابق (٣٣٦/١٣-٣٤١)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤٩٤/٢)

للأخرى، كيف هي نظرة بعضهم لبعض، وكيف نظرتهم لما هم فيه متباينون. ووصفوا وسَمَّوا الضلال بالقديم ﴿لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَـدِيمِ ﴾ لأنه بلغ الانتظار سبعاً وسبعين سنة. فهو قديم الامتداد من التذكر ليوسف عليه السلام، مما يكشف عمق محبة الأب الذي يمثله يعقوب عليه الصلاة والسلام، مع الشوق الذي يعايشه ليلاً ونهاراً.

وقول أهل يعقوب له ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَـدِيمِ ﴾ متجانس ومتوافق مع ما قاله لهم يعقوب عليه السلام ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ فقد رأوه وفق ما يجهلون، وخاطبهم يعقوب وفق ما يجهلون، فقال لهم: لولا أن تهرموني وتسفهوني من مقولتي لكم أنني أجد ريح يوسف، الأمر الذي لا تستوعبه عقولهم عن غلام أكله الذئب، حسب ادعاء إخوته.

ثم تأتي مرحلة كشف حقيقة يوسف لأهله أنه حي، وكذلك حقيقة علم يعقوب عليه السلام، من أنه لم يكن على خطأ، ولم يكن في ضلال، بل على علم من ربه تبارك وتعالى ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فمجيء البشير دليل على أن هناك من تقدم من أولاده مسرعاً، ليبشر أباه يعقوب بيوسف عليهما السلام، وليؤكد له حقيقة ما كان يقوله لهم عن يوسف عليه السلام ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ فمن هو البشير من أولاده؟ ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أن البشير هو المبشر برسالة يوسف ليعقوب عليه السلام، وهو يهوذا بن يعقوب، أخو يوسف لأبيه[١] وقال السدي رحمه الله تعالى: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً[٢]﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ فعندما وصل البشير وضع القميص على وجه يعقوب عليه السلام فارتد إليه بصره إلى الحال التي كان عليها قبل أن تبيض من الحزن، وهذه آية عظيمة ليعقوب وليوسف عليهما السلام، وتعظيم من الله تعالى لهما، وفيه بيان لأهلهم ولغيرهم بمنزلتهما ومكانتهما الرفيعة عند الله تعالى.

وهنا قال يعقوب لمن كان عنده ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فيقررهم بسؤال تقريري، أنه يتكلم معهم بعلم من الله تعالى، وأنه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمونه، مما غَيَّبَهُ اللهُ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٣/١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/٢)

تعالى عن غيره. فيتبين لهم بذلك مزيد مكانته ورتبته عند الله تعالى، وأن عليهم أن يتعاملوا مع أقواله وأفعاله معاملة التابعين للمتبوع، لاصطفائه من الله تعالى بالنبوة.

ولما رجعوا إخوة يوسف من مصر، ووصلوا إلى أبيهم، قالوا أمام ظهور الحقائق وانكشاف الحق ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ فطلبوا من أبيهم أن يستغفر الله تعالى لهم، وبدأوا خطابهم لأبيهم بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَبَانَا ﴾ التي تحمل دلالة الاستغاثة، بمضمون عاطفة وصلة الأبوة، فطلبوا منه الاستغفار لهم ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ ﴾ وأردفوا طلب الاستغفار بالاعتراف ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ وهو دليل على قوة الندم والاعتذار بالاعتراف، وبتخطئة أنفسهم، فخاطبهم يعقوب عليه الصلاة والسلام بالصفح عنهم، وقبول الاستغفار لهم ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ فأراد أن يستغفر لهم في غير ذلك الوقت، حيث جاء الرد على سبيل المستقبل، أي سوف أفعل، وفيه وعد وإطماع لهم بفعل ذلك، ولعله يحمل تكرار الاستغفار لهم فيما هو قادم، فأراد اختيار الوقت الفاضل للاستغفار، ثم بين لهم ما يُطَمّعُهُم في مغفرة الله تعالى، وذلك بذكر صفاته عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فهو الله عَزَّ وجل الذي عُهِدَ منه المغفرة والصفح والستر، والرحمة بعباده، وفي هذا تطمين لهم بأسماء الله تعالى وصفاته المناسبة لمطلبهم ورجائهم. وفي استحضاره لذلك ما يُعلم المسلم استحضار ما يوافق حال التائب والمستغفر من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى. وقد جمعوا في طلبهم من أبيهم أن يسامحهم، وأن يطلب من الله تعالى مسامحتهم، ورفع الذنب والجزاء عنهم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى
حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى
وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ
وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بسفر يعقوب عليه السلام وأولاده وأهلهم إلى مصر، ولقائه ومن معه بابنه يوسف عليه السلام ر﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

ءَامِنِينَ ﴾ لم يذكر الله سبحانه وتعالى خبر السفر إلى مصر، إذ ليس فيه حدث تتحقق به فائدة، وأن الإخبار بلقاء يوسف طوى السفر، واستوعبه، وورد الانتقال إلى مقابلة يوسف مباشرة، وبأسلوب يشد معه القارئ في المتابعة دون أن يلتفت لمسافة السفر، وفي هذا الأسلوب استثارة النفس، وسرعة تغذية استشرافها وتَشَوُّفِهَا، مع تجويد المتابعة وإلهابها بالمفيد تباعاً دون انقطاع، مع تجاوز الغير مجدي من أحداث السفر ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ فعند دخولهم على يوسف ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ أي أنزلهما عنده، وضمهما إليه، وخصهما بقربه حفاوة وتبجيلاً وتعظيماً لمقامهما، قال الزمخشري رحمه الله: ضمهما إليه واعتنقهما[١] والمقصود بالأبوين: أبوه وأمه. وقيل المقصود بالأبوين: أبوه وخالته، لأن أمه قد ماتت، قاله ابن عباس والجمهور[٢] وكانت أمه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين[٣] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وظاهر القرآن يدل على حياتها[٤] وقال الحسن وابن إسحاق رحمهم الله تعالى: أبوه وأمه[٥] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق، لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس، والمتعارف بينهم، إلا أن يصح ما يُقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك، بحجة يجب التسليم لها[٦] والأولى بالصواب أن المقصود بالأبوين : أبوه وأمه. من فوائد حال كونها خالته، وهو القول المرجوح، فإن في تسمية الخالة بما يضعها في موضع الأم، ما يدل على كريم منزلتها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم (الخالة بمنزلة الأم) [٧] وأما هذا الفعل من يوسف عليه السلام بتخصيص والديه بالإيواء فإن فيه دلالة الإحسان لأبويه، ودلالة على قدر ومكانة الوالدين، وأنه مهما ارتفع مقام الولد فإنه لا يرتفع على الأبوين أبداً. وكذلك وجوب تخصيص الوالدين بالترحيب والإكرام، وإن كانت الخالة فهي تقوم مقام الأم. فالأمر متعلق بالحدث نفسه.

ثم بعد الاستقبال لهم، أكمل الترحيب والبشارة والاطمئنان بطيب المقام ﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ فالأمر هنا هو أمر تكريم ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أي: آمنين

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٤٩٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢١٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/١٧٢)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٠٨)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢١٦)

(٦) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٣٥٢)

(٧) البخاري، الجامع الصحيح (٣/١٤٤) برقم (٤٢٥١)

بدخول مصر استيطاناً بها، وتبشيراً لهم بتحقق الطمأنينة فيها من كل وجه، ومن كل ما يمكن أن يخافه الداخل لبلد لا يعرفه، أو لم يعش فيه. وربط تحقق الأمن بمشيئة الله تعالى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ مما يفيد أهمية تطمين القادم على ما يمكن أن تستنكره نفسه، ومنعاً له من الخوف، وإيصال الاطمئنان له، مما يدل على أهمية الأمن الذي هو أحد أركان سعادة الإنسان كما قال صلى الله عليه وسلم (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[١] ولم يعتمد يوسف على ما مَكَّنَه اللهُ تعالى منه، بل قدم مشيئة الله تعالى على ما وعدهم به من الأمن ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ مما يبين أنه مهما توفرت الإمكانات، وأسباب تحقق الموعود به، فإنها لن تغني عن الله شيئاً، وأن الوعود ما هي إلا هباء منثورا إن لم يكلأها الله تعالى بتوفيقه وتسديده. وجمعت كلمة ﴿ءَامِنِينَ ﴾ الأمن من كل وجه: الأمن من الجوع، والأمن من البطش والأذى، والأمن من كل ما يحصل منه السوء والخوف. بما يعني أنه يتحقق لكم بمشيئة الله تعالى طمأنينة النفس، وراحة البال، وانتفاء الخوف، فيجتمع لكم بذلك طيب المقام، وبكل ما يصلح به حالكم ونفوسكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: دخلوا مصر يومئذ وهم نيف وسبعون، بين ذكر وأنثى. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلوا وهم ثلاث وتسعون، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألف[٢] بما يفيد تكاثرهم خلال تلك السنوات، وكيف بارك الله تعالى فيهم، وكيف نقلهم الله تعالى إلى أرض مصر لتكون ذريتهم سنداً لموسى عليه الصلاة والسلام. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ويقال والله أعلم: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم[٣]

ومن مزيد تكريم يوسف لأبويه أن رفعهم على مجلسه ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا ﴾ فمن مزيد الإحسان والتكريم لوالديه أن أجلسهما على سرير الملك الذي يجلس عليه يوسف عليه السلام، ومن دقة بيان القرآن الكريم أنه ورد إجلاسهما على العرش بصيغة الارتقاء والارتفاع ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ ﴾ كما يدل على أن سرير الملك مرتفع على غيره في ديوانه ومجلسه ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا ﴾ أي: سجدوا له على وجه التحية والتكريم والتبجيل، لا سجود عبادة. ولعل ذلك كان جائزاً وشائعاً. ويؤكد فعل السجود

(١) الترمذي، الجامع الصحيح (/) برقم (٢٣٤٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٦/٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/٢)

معناه، وكذلك لفظة ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾ التي تعني السقوط المشتمل على السرعة، والسقوط يشمل ملامسة الأرض.

ثم أشار يوسف عليه الصلاة والسلام عند سجودهم له إلى رؤيته السابقة التي نصحه أبوه يعقوب بأن لا يقصها على إخوته فيكيدوا له كيدا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ فوجه الخطاب لأبيه بياء النداء ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ والذي يفيد في هذا السياق على السرور بحصول تأويلها كما كانت ﴿تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ وخص أباه دون غيره، تكريماً وتبجيلاً له، ولأنه الأحق بذلك التخصيص دون غيره، ولأنه الأكثر فرحاً وسروراً من غيره بهذا، وكذلك هو الذي أولها له، والذي خاف عليه من بقية بنيه. مما يعطي دلالة على رفعة أخلاق يوسف عليه السلام، وبره بوالده. ثم أشار إلى أنها قد أصبحت حقيقة، وواقعاً كما كانت الرؤيا ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ ووصفها بالحق، الذي لا كذب ولا مراء فيه. فإن الله تعالى هو الذي جعلها حقيقة ولم يجعلها أضغاث أحلام، ونسب التحقق لله تعالى، فلم يُنْسِيه موقف الفرح والسرور أن ينسب التحقق إلى الله تعالى، ليبين أن قلبه معلق بالله عَزَّ وجل، ففي كل موقف كان ينسب الأمر إلى الله عَزَّ وجل.

وجملة ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ توضح أن سجودهم له يطابق دلالة الرؤيا وحقيقتها ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فإخوته كانوا أحد عشر رجلاً، والشمس أبوه يعقوب، والقمر أمه راحيل. ولعل في هذا ما يرجح أن أمه كانت حية، لم تمت. ثم أردف ذلك بذكر المزيد من إنعام الله تعالى عليه وعليهم، فبدأ بإحسان الله تعالى عليه من عظيم البلاء ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ فقد أحسن تبارك وتعالى إليَّ إذ أخرجني من السجن، ولم يجعلني أمكث فيه، فنظر يوسف عليه السلام إلى نعمة الخروج من السجن، ولم ينظر إلى الزمن الذي قضاه فيه، وما كان من عظيم الابتلاء بدخوله السجن، والمكوث فيه سنين عديدة، قيل سبع، وقيل: عشر. وما تعلق به من الإحسان إليه من العصمة من مطلب امرأة العزيز، وحصول براءته، وأن جعل السجن سبباً في تواصل الملك معه، فأصبح ملكاً، وبيده خزائن الأرض التي مكنه الله تعالى منها. وفيه التذكير لهم بما لم يرونه وهو في السجن، فيعيشوا معاناته.

ومن جميل منطق يوسف عليه السلام أنه لم يذكر ضمن إحسان الله تعالى له: إخراجه من غيابة الجب، وذلك إكراماً لإخوته، وهم في مملكته. إذ وعدهم بعدم تذكيرهم بذلك الموقف، أو الحديث ﴿قَالَ لَا

﴿تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ لا لوم عليكم، ولا تأنيب، ولا تقريع. وكذلك لم يذكر الأمر المتعلق بامرأة العزيز وعصمته منها، بل طواه بالسجن، لأن السجن كان بسببه، وفي ذلك إكرام منه لها ولزوجها الذي اعتنى به، وللبيت الذي عاش فيه.

ثم ذكر من إحسان الله تعالى عليه انتقال آل يعقوب إلى مصر، واجتماعه بهم جميعاً ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ فنقلكم سبحانه وتعالى بهذه الأسباب من البادية، الذين هم أهل الماشية والترحال، إلى المكان الذي مَكَّنَه اللهُ تعالى منه، مما يدل على منزلة مصر، وأنها كانت ذات حضارة ذلك الوقت، وأنها متحضرة ومتقدمة على غيرها. مما يفيد أن الانتقال من بلد إلى بلد أفضل وأحسن هو نعمة من الله تعالى، تستوجب الشكر والثناء لله عَزَّ وجل، وفيه كذلك من الفوائد أن ينسب المؤمن جميع النعم إلى الله تعالى، فهو المنعم، والموفق والميسر للأسباب التي تحصل بها النعم والخير.

ثم ألحق بها نعمة الاجتماع والتصالح بعد ما حصل من إخوته معه ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ ومن جميل الخطاب والبيان أن نسب يوسف عليه السلام ما حصل بينه وبين إخوته إلى الشيطان، تكريماً لهم، وإزالة لما يكون من أثر في قلوبهم، فأسند الفساد إلى الشيطان، ولا شك أن للشيطان حظ في ذلك. ولكن الإنسان مسؤول عن تصرفاته. وجعل من نفسه طرفاً، وإخوته طرف، والشيطان هو الذي هيج وأفسد بينهم، فهذا من توفيق الله تعالى وتسديده له في القول والعمل والرأي والتحليل. وهذا من مكارم الأخلاق، وحكمة البيان، ليعطي بهذا منهجية لكل أحد في قضايا التعامل مع مثل هذه المواقف. وأن الحكمة تقتضي أحياناً صرف وجه الشي أو تقاسمه مع الغير لتحقيق منفعة أعظم وأكبر.

ثم ربط ما هم فيه من خير، وتجاوز للمحن والكرب والبلاء بلطف الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فإن الله تعالى متصف باللطف، واللطيف اسم من أسماء الله تعالى، قال السعدي رحمه الله تعالى: يُوصِلُ بره وإحسانه إلى العبد، من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء موضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[١] فقد لطف سبحانه وتعالى بيوسف وأبيه يعقوب، وبأهلهم أجمعين، وأخرجهم من الضيق إلى السعة، ومن القلة إلى الكثرة، وتولى تدبير أمر يوسف عليه السلام بحكمة بالغة، إذ أوصلته إلى أعلى مراتب الدنيا والآخرة، وجعل من شأن يوسف

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٤٣٧-٤٣٨)

آيات للتأمل والتدبر، ومعجزات تعاقبت في حياته، وكذلك آيات تتلى، وسورة مما نُزِّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باسمه، وأصبح ذكره لا ينقطع في الدنيا من كثرة التالين لكتاب الله العزيز الحكيم.

ويذكر ويشكر يوسف بمزيد الثناء على الله تعالى، وينسب كل خير له عَزَّ وجل ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فانتقل يوسف عليه الصلاة والسلام إلى مناجاته لربه تبارك وتعالى، معترفاً له بعظيم النعم، ولطف التدبير، وكمال العطاء، مبتدئاً مناجاته بقوله ﴿رَبِّ﴾ التي تحمل دلالة الربوبية، وأنه الرب الذي يَرُب عباده بالنعم، والتوفيق للخير، والتحذير لهم من الشر، والمالك المتفرد بالخلق والتدبير، والغني المتفرد بغناه، وغيره فقير إليه، وهو الخالق، وغيره مخلوق. وبعد مناداته ومنجاته لربه بربوبيته وألوهيته، يعترف بإنعامه عليه ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي أعطيتني وآتيتني مُلْك مصر، ومن دقة الإعجاز في البيان أن قال ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ للتبعيض، ولم يقل آتيتني الملك، إذ كان ملكاً على مصر، ولم يكن ملكاً على كل ممالك الدنيا، وهذه الدقة تدل على الإعجاز في دقائق البيان، ودقة موافقته للحقائق، بعبارات متناهية في كمالها وجلالها، وجمال أسلوب نظمها. ثم ذكر نعمة أخرى ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي من تعبير الرؤيا، فمكنتني منها، وكذلك جاءت بما يفيد التبعيض، لتفيد أنه لم يَدَّع لنفسه كمال الإحاطة، بل قال ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لتفيد البعض، وهو من الأدب، والعلم بأن علم الله تعالى لا يحيط به أحد من سعته، فإن فوق كل ذي علم عليم، إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى. مما يفيد تواضع العالم، فإذا كان يوسف النبي عليه السلام، مع غزارة ما أعطاه الله تعالى من علم تأويل الرؤيا، يقول ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فكيف بمن هم دونه من أهل العلم. مما يعني أهمية التواضع عند حصول النعمة، والإدراك بأنها مِنَّةٌ من الله تعالى، وأنه قد يعطي غيره ما لا يعلمه أو لا يفهمه من العلم.

ثم نادى يوسف عليه السلام ربه تبارك وتعالى قائلاً ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: يا خالق ومنشئ ومبدع السماوات والأرض ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولى أمري في الدنيا والآخرة، فأنت الذي أستنصر وأستعين به، وأنت الذي نصرتني وتنصرني، وأعنتني وتعينني، ووفقتني وتوفقني، وهديتني وتهديني، وأنه لا تدبير لي إلا بتدبيرك وتوفيقك، وهو اعتراف بأن الله تعالى ولي نعمته التي أنعم بها عليه سبحانه وتعالى في الدنيا، وكذلك الذي يلي

أمره وشأنه في الآخرة بما يشاء سبحانه وتعالى، وفي هذا تفويض أمره لله تعالى في دار الدنيا والآخرة. ثم بعد تعداد مجمل النعم يسأل الله تعالى أن يُحسن خاتمته ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي حال ما تقبضني وتتوفاني يا الله اجعلني على ملة الإسلام، فلا تفارقني ملة الإسلام حتى أموت ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ واجعلني في جملة الصالحين الذين التزموا الطاعة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد دلت كلمة ﴿ مُسْلِمًا ﴾ أن دين الله تعالى هو الإسلام، وهو ما تعبد به الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه. القائم على التوحيد، وأداء ما شرع الله تعالى لكل من أرسله الله تعالى فيهم رسولا. وفيه أن المناجاة لله تعالى تكون بأسمائه وصفاته وتدبيره، والثناء والحمد بذكر ما أنعم به على العبد، ثم يليه السؤال. ومن جميل السؤال أن يوسف عليه الصلاة والسلام لخص مطلبه في أمرين عظيمين، وكلاهما متعلق بطاعة الله تعالى وبالآخرة ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ وهو هدف ومراد متعلق بالاستمرار على الطاعة حتى تأتي الخاتمة من الدنيا، والمطلب الثاني هو: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أن يكون في الآخرة مع الصالحين، فهما ملخص الأهداف عند المؤمن الصالح. اللهم نسألك حُسن الخاتمة. اللهم توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا
أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ
(١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾

بعد تمام عرض قصة يوسف عليه الصلاة والسلام يتوجه الخطاب، وينتقل البيان الكريم إلى مخاطبة سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ببيان فضل وميزة ما خصه الله تبارك وتعالى من العلم الذي كان يجهله عليه الصلاة والسلام وقومه وغيرهم عن خبر يوسف عليه السلام، والذي خصه به عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فتوجه الإخبار من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم باسم الإشارة مباشرة ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ لما في اسم الإشارة في هذا السياق من لفت انتباه السامع والقارئ للحدث، وما فيه من العبرة، وما فيه من خصوصية العلم بما يجهله صلى

الله عليه وسلم وقومه، ليكون آية إعجاز وإثبات لكل أحد أن هذا من عند الله تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فذلك الإنباء الذي نوحيه إليك عن يوسف هو من أنباء الغيب الذي وصل إليك وحياً من الله تبارك وتعالى، فأضاف الله عَزَّ وجل الْمُوحَى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إليه سبحانه وتعالى، بأنه منّي أنا الله، جَلَّ جلاله، ليكون بياناً لغيره أنه وحي، وتزكية للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن ما يخبركم به هو وحي منه تبارك وتعالى، لينذركم به. ووصفه بصفة الغيب ﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ لبيان أنه مجهول عندك وعند قومك، للدلالة على أن هذا الإنباء هو آية إعجاز.

ثم يُفَصِّلُ تبارك وتعالى هذا الإنباء بما يدلل ويُثْبِت أنه وحي منه تبارك وتعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ وما كنت يا محمد لدى إخوة يوسف وقد أجمعوا رأيهم باتفاقهم على المكر بيوسف، والمكر هو صرف الغير عما يريده ويقصده بحيلة[1] ومن دقائق البيان الكريم أن الممكور به محذوف، ليستوعب مكرهم بيوسف، وإلقائه في غيابة الجب، ومكرهم بأبيهم حين قالوا ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وهم يقصدون أمراً آخر، خلاف ما قالوا، وخلاف ما تعهدوا به، وذلك بإلقائه في غيابة الجب، والادعاء بأن الذئب أكل يوسف ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضراً معهم ليشهد ما فعلوا، فيخبر به كما وقع، فانتفى علم المشاهدة عن النبي صلى الله عليه وسلم لدقائق ما كان منهم، والذي لا يمكن لأحد أن يعرفه إلا بالمخالطة والمعاينة والمشاهدة المباشرة لهم. فليس هناك طريق لعلم ذلك إلا بالوحي من الله تعالى، مما يستلزم الإيمان به، وبما جاء به.

وكذلك من دقائق البيان قوله تعالى ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ العزم المتوافق بينهم من دون خلاف، وما دار بينهم من التداول في الرأي والتشاور، حتى حصل العزم المتوافق، فتخبر الناس يا محمد بدقائق التفاصيل التي لا يمكن لأحد معرفتها إلا إذا كان معهم حين توافقوا في رأيهم على ما كان منهم من المكر بيوسف عليه السلام، وفي هذا التفصيل إشارة إلى دقائق ما تضمنه الإخبار من الله تعالى، مع التأكيد بأنه وحي منه عَزَّ وجل. ومع هذه الدلائل القوية الباهرة فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ

(١) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٧١)

﴿حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وما أكثر الناس أيها النبي الذين لن يؤمنوا، مهما كان حرصك على إيمانهم، ومبالغتك في هدايتهم للحق، مع تكرار معاودتك لهم، فإن المانع لهم ليس هو غياب الحقيقة، بل معاندة الحقيقة وردها، وإصرارهم على الكفر، فبالرغم من أن هذا الإنباء آية إعجاز لنبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، إلا أن المعاندين يتفلتون من التصديق به عليه الصلاة والسلام. وفي هذا عبرة وإشارة إلى أن أكثر الناس يستمرون على ما ورثوه من الضلال عن آبائهم.

ومن بلاغة البيان ورحابة دلالته أن لفظة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وردت بصيغة العموم، لتفيد جنس الإنسان، فيستوعب به النص الكريم جميع الناس، فيمتد إلى جميع العصور والأزمان عن امتناع أكثر الناس عن الهدى، مع ما يقابله من الحرص عليهم ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ والتي تدل على الرغبة الشديدة في هدايتهم، وعلى التكرار والمعاودة إليهم دون يأس أو كلل وملل، مع الإلحاح وعدم الزهد في المدعوين، والصبر على ما يكون منهم، إلا أنهم مع جميع هذه الدواعي ينفرون عن الهداية عناداً واستكباراً، وبعضهم حسداً، وبعضهم تفلتاً عن الحق، وعدم الاكتراث به. وفي هذا تنبيه وتعليم لكل من يدعو إلى الخير، بأن واجبه هو الحرص على هداية الدلالة، وسؤال الله تعالى التوفيق، وأما هداية التوفيق فلا يملكها أحد من المخلوقين، وأن لا ينزعج من نتيجة ذلك، ولا يتضجر من الذين لا يستجيبون له، فإذا كان هذا البيان من الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم، على ما أُوتي من جوامع الكلم، فكيف بغيره.

ومع هذا الحرص يا أيها النبي فإنك لا تسألهم ثمناً يدفعونه لقاء تحصيل الهداية، ومع ذلك ينفرون ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإنك يا محمد لا تطالب الناس بثمن يدفعونه مقابل بيان الهدى والحق، ودعوتك لهم إليه، وتعليمك لهم القرآن، وتعاليم هذا الدين، ومع هذا ينفرون ويتعالون ويصدون ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالذي أتيتهم به ما هو إلا تذكرة لهم بما فيه صلاحهم ونجاتهم وسعادتهم، بما يعني: ليس فيه شيء من دواعي الصدود والرد، فعلى أي شيء يصدون عنه ويردونه، إنها محاجة وبيان وبرهان أن ممانعتهم هي ممانعة عناد واستكبار. وفي هذا النص الكريم تحليل لواقعهم بأدق المعاني، وأبلغ البيان.

ثم يخبر الله تعالى بما هو مبثوث في الكون من الآيات التي يُعْرِضُون عنها ولا يلتفتون إليها ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ فكم من آية في السماوات والأرض تدلهم على توحيد الله تعالى، وأنه الخالق الذي يجب إفراده بالعبادة، فالسماء والنجوم والكواكب والشمس والقمر والأرض والجبال والمطر، وإنبات الزرع، والمياه التي منها ما يجري على سطح الأرض، وما هو في جوفها، والموت والحياة، فيمرون بها كل لحظة من حياتهم، بل ويتعاملون معها، ويستفيدون

منها، ومع ذلك يعرضون عن إفراد الله تعالى بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يؤكد أهمية التأمل في ملكوت الله تعالى، فإنه يحقق قوة الإيمان، ويزيده وينميه.

حتى أن أكثرهم عندما يؤمن بالله تعالى يخلط إيمانه بالشرك ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فمع إيمانه إلا أنه يخلطه بالشرك. فإن أهل الشرك يُصَدِّقُون بالله تعالى، فيؤمنوا به، ولكنهم يجعلون له شركاء مما يعملون من الأوثان والأصنام، فيدخلون في باب التناقض الذي يتنافى مع توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، فحتى إيمانهم غير مقبول. وفي هذا ذم وتشنيع لشركهم، وإبطال لإيمانهم المتناقض مع حقيقة الإيمان، مما يدل على بطلان الشرك وفساده.

ثم يشرح ويبين الله تعالى بأسلوب الاستنكار ما يستحقونه من العقوبة ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فهل يأمن هؤلاء عقوبة الله تعالى لهم، بأن يحيط بهم ما يغمرهم من عذاب الله تعالى ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أو أن تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يتوقعون، مما يدل على فظاعة جرمهم، بأن الذي يستحقونه لو عاملهم الله تعالى به لغمرهم العذاب كما ينغمر الإنسان في النهر والبحر، فيحيط بهم العذاب من كل مكان، أو أن تأتيهم الساعة التي لا توبة ولا مجال للرجوع والتراجع عن الباطل حينها، فيدخلون بذلك جهنم داخرين. وقد جاء البيان بأسلوب التقريع والتوبيخ ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ ﴾ وذلك لتعظيم شأن جرمهم الذي هم فيه، فهو سؤال استنكار وتوبيخ وتقريع. كما أفاد أسلوب الخطاب والبيان أنهم متمادون في غيهم، وكأنه لا شيء يعنيهم. وفي هذا تحذير بتحليل واقعهم، وما هم عليه من الكفر، والتمادي الموجب لهم العذاب العظيم فيما لو عجل الله تعالى به عليهم، وعلى من يشرك به، ويكفر به سبحانه وتعالى.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا

يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

ويستمر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لبيان حدود مسؤوليته وحدود مهمته المنوطة به عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فقل يا محمد لمن يكفر بك ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ أي: هذا طريقي وسنتي ونهجي ودعوتي ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ التي أدعو بها إلى الله تعالى بتوحيده وإفراده بالعبادة، ثم وصف أساسها ودعامتها التي تقوم عليها ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي أنها على حجة واضحة، وبرهان ساطع مُبِين، ويقين من العلم به من الله تبارك وتعالى، وليس على جهل، ولا من الخاطر والاجتهاد، فنفى الله تعالى عن دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم الأمور الذاتية الشخصية. ثم أضاف إليه بيان من يقوم بمهام هذه الدعوة ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ فأدعو أنا إلى دين الله تعالى، وكذلك من آمن بي وصدقني، فاتبعني واهتدى بهديي، وسلك مسلكي الذي هو على بصيرة من الله تعالى، فإنهم يقومون بما أقوم به. مما يفيد أن من واجب المؤمنين القيام بما قام به صلى الله عليه وسلم من الدعوة بما يستطيعون، وأنه يجب أن يكون منهجهم الدعوي وفق منهجه صلى الله عليه وسلم.

ويعطي قوله تعالى ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ أن الاتباع: وهو المتابعة له صلى الله عليه وسلم شرط لها، وأن القيام بالدعوة منزلة عظيمة ورفيعة المقام، لأن القائم بها، يقوم بما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم. ولذلك وصف النبي صلى الله عليه وسلم علماء الدين بأنهم ورثة الأنبياء، لأنهم يقومون بما يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بتنزيه وتعظيم ربه تبارك وتعالى ﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فَتَنَزَّه اللهُ تبارك وتعالى عن أن يكون له شريك، أو معبود سواه، وهو الغني عن مخلوقاته، وأن مخلوقاته مفتقرة إليه في كل شيء ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وأنا لست من أهل الشرك، وبريء منهم، ومن شركهم. مما يدل على رفعة مقام التسبيح والذكر، وتنزيه الله تعالى عن الشريك من كل وجه، وأن يحرص المسلم على تحقيق التوحيد في شأنه كله، وأن يَبْرَأ إلى الله تعالى من الشرك والمشركين. وهذا يوضح مخاطر الشرك والمشركين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تبرأ منه، وأعلنه على الملأ بإرشاد من الله تعالى له.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من الحجج على صدق رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ فإن جميع من أرسلهم الله تعالى برسالاته إلى أقوامهم في الأمم السابقة كانوا رجالاً، ولم يكونوا من الملائكة، بل في تخصيصهم بجنس الرجال ما ينفي جنس النساء من الرسالة، وبالتالي فَلِمَا الاعتراض على ما جرت به سنة الله تعالى فيمن سبق، بما يفيد أيريدون أن يعينوا ويختاروا ما يريدون من المرسلين. فإن العبد لا يعترض على سيده.

وأما مضمون الرسالة من الله تعالى، فإنه يوحي إلى المرسلين بالرسالة ﴿ نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ فيأتيهم وحياً من الله تبارك وتعالى كما نوحي إليك. وفي هذا رد على من قال ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ ﴾

وتضمن النص الكريم أن اختيار وتعيين المرسلين هم من أهل القرى دون البادية ﴿ نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى وغيره من علماء التفسير: المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل بواديهم، وأهل الريف[1] مما يفيد أن التمدن يُلطف ويكسر من حدة جفاء البداوة الناجمة من شظف العيش، وقسوة الحياة، وقلة العلم. وبالتالي فإن المرسلين هم من أفضل أهل الطباع، إضافة إلى ما جبلهم الله تعالى عليه من الحكمة ومكارم الأخلاق، وتسديدهم وإعانتهم.

ثم يثبت الله تعالى على المنكرين أنهم لم يتعظوا بغيرهم من خلال سؤال استنكاري ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾ أفلم يحصل من هؤلاء المنكرين المشركين أن ساروا في الأرض، فمروا بديار أقوام قد نالهم العذاب لكفرهم، وعدم استجابتهم وطاعتهم لرسلهم، فيحصل لهم الاعتبار بذلك، فينتهوا عَمَّا هم فيه من التكذيب والتطاول على الحق، فأهل مكة كانوا أهل تجارة إلى اليمن والشام وغيرها، فيمرون على ديار عاد وثمود. وهذه من الحجج القائمة عليهم، التي ينتفي بها العذر من التأمل والنظر بحواسهم وعقولهم إلى آثار تلك الأقوام المكذبة بالرسل، فينقل الناظرون منهم والمارون بها علم ذلك إلى بعضهم البعض.

ثم بعد التوبيخ لهم بالسؤال الاستنكاري الذي قامت به الحجة عليهم، يوجه الله تعالى عباده إلى المقارنة بين دار الدنيا ودار الآخرة ﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ فإن الدار الآخرة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥١٤)

خير وأفضل من الدنيا لمن آمن وخاف الله تعالى باتقاء الشرك، وامتثل وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أفلا يحصل منكم التعقل بالتفكر فيما يخاطبكم الله تعالى به، وعلى ما قامت به الحجة البالغة التي لا ينكرها إلا جاحد للحق. فهو سؤال استنكار على عدم تعقلهم، وكذلك تأنيب لهم على عدم الطاعة والامتثال، وعدم المقارنة بين هذه الدنيا الفانية والدار الآخرة الباقية، وغمرتهم وطغيانهم في الكبر.

ومن جميل البيان الاستغناء عن زوائد الألفاظ، فلم تُذكر الدنيا لفظاً، لأن ليس هناك مفاضلة مع الآخرة إلا بالدنيا ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لأن ليس هناك ما يقابل الآخرة إلا الدنيا، فجاء التفضيل للآخرة على غيرها، وهي الدنيا، وهذا من الإعجاز في نظم وسبك البيان، كما شملت لفظة ﴿خَيۡرٞ﴾ جميع أوجه الخير، الذي تتعدد مواطنه، وأنواعه، وكثرته، فالآخرة خير للمتقين بالفوز بالجنة، وبرؤية الله تعالى، وبالحياة الأبدية التي لا موت فيها، ولا نصب ولا تعب، فهو نعيم دائم، لا يقل ولا ينفد، وغير ذلك من فضل الله تعالى الذي لم يخطر ببال أحد، ولا سمعت به أُذنٌ، ولا عينٌ رأت.

ثم يحذر الله تعالى المشركين من عذابه سبحانه وتعالى، بذكر ما كان من العذاب بمن سبق ممن كفر من الأمم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فما أرسلنا من قبلك من المرسلين، فدعوا أقوامهم، وصبروا على تكذيبهم لهم، وطال مقامهم بينهم حتى وصلوا لحالة اليأس من إيمانهم، وبلغ اليأس مبلغه من أنه لن يؤمن من أقوامهم غير من آمن، فيئسوا من دخول غيرهم في دين الله تعالى، واستيقنوا من ذلك، لشدة إصرارهم وتمنعهم، وبلغ تكذيب أقوامهم لهم مبلغ اليقين الموجب لليأس من إيمانهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ فظنوا ظن يقين أن قومهم كذبوهم، ولا مجال لإيمانهم، وأنهم ممتنعون عن الاستجابة لله ولرسله. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: الرسل تيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس ذلك مجرد ظن منهم. والذي ينبغي أن يُفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة، ويُفَسَّرُ بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة[١] مما يفيد إمهال الله تعالى لهم، وعدم الاستعجال عليهم، لحلمه سبحانه وتعالى ورحمته بالناس، مع علمه بما هو كائن منهم قبل أن يكون، ولكن يعاملهم بسننه عَزَّ وجل.

وفي هذه المرحلة التي ثبت تماماً أنه لن يؤمن من تلك الأقوام أحد ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ أي جاء نصر الله تعالى للرسل بإهلاك الكافرين ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ فينجي الله تعالى من يشاء، وهم المرسلين

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٦١)

ومن آمن معهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وعند نزول العذاب على القوم المجرمين، فإنه لا يمكن رده تلك الساعة، مهما حصل منهم، وكذلك لا يستطيع أحد أن يتوقى منه، أو يرده أحد عن أحد، أو حتى عن نفسه. مما يبين أن عذاب الله تعالى شديد، وأن حلم الله تعالى واسع عظيم، وأنه يمهل ولا يهمل أحداً على طغيانه وتماديه.

وهذا يعلم المؤمنين سواء في مجال الدعوة أو طلب الرزق، أو في الجهاد، أو في غيرها من حالات الفرد، وحالات الأمة، أن الصبر والحلم والتأني أمور موافقة لمنهج الله تعالى وملازمة له، ولسننه المتوافقة مع حلمه تبارك وتعالى، ومحبته للصابرين، ومعيته لهم، وأن الله تعالى يُنَزِّلُ عونه ونصره وتوفيقه عند ضيق الحال، وانتظار الفرج منه عَزَّ وجل. وفي هذا البيان من الله تعالى موعظة بتذكير المشركين بما كان من أمر الرسل السابقة، وما كان من أقوامهم، وما لحق المكذبين من العذاب العظيم، وما كان من إمهال الله تعالى وحلمه عليهم، وأن عدم استعجال عذابه بهم هي سنة الله تعالى، لتقوم به الحجة على المكذبين، فلا يظلم الله تعالى أحداً من عباده أبداً.

ثم يختم الله تبارك وتعالى السورة بأخذ العبرة من قصة يوسف عليه السلام، ومن قصص المرسلين وأقوامهم، بهلاك المكذبين، ونجاة وفوز المؤمنين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيخبر الله تعالى ويؤكد للمخاطبين، وهم الناس أجمعين، بأن قصص الرسل والأمم التي قصها تبارك وتعالى في كتابه، والتي منها قصة يوسف، هي ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: عظة وبينة واضحة صادقة، وبصيرة ودروس ومواعظ، تنقل الموعوظ بها من الجهل بالشيء إلى العلم به، وتقوي عقله على الحق، وتهديه وترشده لمصلحته، لما فيها من الأحداث الواعظة، والأخبار الزاجرة، والمواقف الهادية للحق والاستقامة، فيستفيد منها العقلاء ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيعتبر بها أهل العقول السليمة الناضجة، التي تستمع الحق فتتبعه، وتعلم الشر فتنتهي وتبتعد عنه. وفي هذا ترغيب وتشجيع، وحث للتأمل والتدبر في مضامين ما قصه الله تعالى في القرآن الكريم، فإن فيه ما يكشف الطريق الصحيح، الذي تستضيء به العقول إلى منافعها في الدنيا والآخرة، وتتجنب به المخاطر والحواجب والموانع والصوارف التي تصدها عن الحق والخير في شأن الدنيا والآخرة. وأن أولي الألباب إذا تفكروا وأمعنوا النظر فإنه يتبين لهم أن من جاء بهذا القصص هو نبي ورسول من عند الله تعالى إليهم، فمحمدٌ صلى الله عليه وسلم رجل أُمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا يستطيع أن يأتي بذلك، بل لا يستطيع الخلق جميعاً ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله، سواء من حيث دقته، وتآلفه، وعدم تناقضه وتعارضه، أو من حيث بلاغته وإعجازه البياني، وتراكيب ألفاظه وكلامه، وحلاوة وطلاوة بيانه، وما فيه من مواعظ وعبر، وأحكام وأخلاق.

ثم يؤكد الله تعالى صدق هذا القصص بأسلوب نفي الافتراء عنه، فإن المقصوص عبرة صادقة المحتوى والأثر ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان له أن يكون حديثاً مفترى بهذا البيان والدقة والمضمون والهدف والغاية، وعظيم المحتوى. فنفى عنه الكذب، وهو الافتراء، والاختلاق، الذي ينافي الحقيقة والواقع، فما كان هذا المقصوص في القرآن العظيم أن يُفترى بالكذب والاختلاق، بل هو الحقيقة كما حصلت، وفي هذا تزكية للقرآن بكماله.

ثم يذكر سبحانه وتعالى دليلاً على صحته، من خلال علاقة الارتباط بين ما تضمنه القرآن الكريم وبين ما تضمنته الكتب السابقة له ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن القرآن العظيم يُصدق ما في الكتب السابقة له، فيصدق الصحيح منها، ويؤيده ويُثبته، ويُكَذِّب وينفي عنها ما دخل عليها من التحريف والكذب، فهو يصدق ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهي الكتب السماوية التي سبق نزولها من الله تعالى. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بل هو مفصل تفصيلاً بيناً لكل شيء يحتاجه العباد، والتي منها: الحلال والحرام، والواجب، والمكروه، والمستحب، والمباح، وكذلك الإخبار بما ينفع العباد من القصص والأحداث الماضية، بما يتعظون ويعتبرون به، وبما هو كائن من الغيوب، من البعث والنشور، ويوم القيامة، والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبيان صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى، وعظمته وقدرته، ورحمته وعذابه، وكذلك بيان منهج عبادته، وتحقيق طاعته، وحقيقة خلق السماوات والأرض، ومنشأها ونهايتها ومآلها. فهو هداية ونور للناس، ورحمة للمؤمنين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهو كتاب هداية، فيهدي به القلوب من الغي والفساد والضلال إلى الحق والرشاد والسداد، ويتحصل به المؤمنون على رحمة الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، فإن في القرآن الكريم ما يبعث على غرس الإيمان، وعلى زيادته، وعلى ما تطمئن به القلوب، وتنشرح به الصدور.

ومن دقائق البيان أن خص الله تعالى القوم المؤمنين بالرحمة، والهداية التي هي الامتثال، فإنه بهذا القرآن الكريم يتحقق لهم نور الطريق الموصل لكل خير، حتى يوصلهم به الله تعالى إلى جنات النعيم، وكذلك هو رحمة لهم، لما يفيض به عَزَّ وجل على المؤمنين من أوجه الخير التي لا حصر لها، في دار الدنيا ودار الآخرة، وأما ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فقد أجمل هذه الصفة التي تضمنت أركان الإيمان جميعاً، اعتقاداً وعملاً، من غير تفصيل لها، والتي تمثل صفتهم التي يتحقق لهم بها الهداية والرحمة، التي هي أعظم مكافأة للمؤمنين.

وبفضل الله تعالى تم الانتهاء من سورة يوسف، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.